QASIM AMIN

TAHRIR AL-MAR'AH

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
10 233 673

2272
8349
389
1928

2272.8349.389.1928
Qāsim Amīn
Taḥrīr al-mar'ah

DATE ISSUED | DATE DUE | DATE ISSUED | DATE DUE
APR 4 | MAY 2 7 | |
NOV 7 | DEC 15 7 | |

Princeton University Library
32101 080197708

تحرير المرأة

تأليف

فقيد القضاء والعلم

قاسم امين بك

بمناسبة مرور عشرين سنة على وفاة الفقيد قد طبعنا هذا الكتاب
تذكاراً له وتخليداً لذكراه

﴿ يطلب من مكتبة الجامعة لصاحبها محمد يوسف ﴾

القاهرة
١٣٤٧

حقوق الطبع محفوظه

Qāsim Amīn

تحرير المرأة

تأليف

فقيد الأدب والعلم قاسم أمين بك

Taḥrīr al-marʾah

بمناسبة مرور عشرين سنة على وفاة الفقيد
طبعنا هذا الكتاب تذكارا له وتخليداً لذكراه

التزام

محمد محمد زكي الدين

يطلب من عموم المكاتب بمصر والخارج

حقوق الطبع محفوظة

مقدمة

كل مسئلة من المسائل التى أجملتها فى هذه الأسطر القليلة يصح أن تكون موضوعاً لكتاب على حدة . وقد تعمدت الاختصار فيها حتى ترتبط تلك المسائل ببعضها كأنها حلقات سلسلة واحدة . وغاية ما أريد هو أن أستلفت الذهن الى موضوع قل عدد المفكرين فيه لا أن أضع كتاباً يوفى الكلام فى شأن المرأة ومكانتها من الوجود الانسانى . وقد يوضع مثل هذا الكتاب بعد سنين متى نبتت هذه البذرة الصغيرة ونمى نباتها فى أذهان أولادنا وظهرت ثمراتها وعملوا على اقتطافها والانتفاع بها

ويرى المطلع على ما أكتبه أني لست ممن يطمع فى تحقيق آماله فى وقت قريب لأن تحويل النفوس الى وجهة الكمال فى شؤونها مما لا يسهل تحقيقه وانما يظهر أثر العاملين فيه ببطىء شديد فى أثناء حركته الخفية . وكل تغيير يحدث فى أمة من الامم وتبدو ثمرته فى أحوالها فهو ليس بالأمر البسيط وانما هو مركب من ضروب من التغيير كثيرة تحصل بالتدريج فى نفس كل واحد شيئاً فشيئاً ثم تسرى من الأفراد الى مجموع الامة فيظهر التغيير فى حال ذلك المجموع نشأة أخرى للامة

وما نحن فيه اليوم ليس فى الطاقة البشرية تغييره فى الحال . وليس من العار علينا أننا وجدنا فى مثل هذه الحالة لأن كل عصر

2272.8349.389.1928
(RECAP)

لايسأل الا عن عمله . وانما العار أن نظن فى أنفسنا الكمال وننكر نقائصنا وندعى أن عوائدنا هى أحسن العوائد فى كل زمان ومكان . وأن نعاند الحق وهو واحد لايحتاج فى تقريره الى تصديق منا به وكل مانقوله أو نفعله لانكاره لايؤثر فيه بشئ وانما يؤثر فينا أثر الباطل فى أهله ويقوم حجاباً بيننا وبين اصلاح نفسنا اذ لا يمكن لامة أن تقوم باصلاح ما الا اذا شعرت شعوراً حقيقياً بالحاجة اليه ثم بالوسائل الموصلة له

لا أظن أنه يوجد واحد من المصريين المتعلمين يشك فى أن أمته في احتياج شديد الى اصلاح شأنها . فهؤلاء المتعلمون الذين أخاطبهم اليوم أقول أن عليهم تبعة مانألم له فى عصرنا هذا . ولا يليق بمعارفهم ولا بعزائمهم أن يسجلوا على أمتهم العجز واليأس والقنوط فان ذلك صورة من صور الكسل أو مظهر من مظاهر الجبن أو حال من أحوال من لاثقة له بنفسه ولا بأهله ولا بملته ولا بشرعه ولا بالهه وأراهم بهذا يستسلمون الى تيارات الحوادث تتصرف فيهم كما تصرف فى الجماد والنبات وتقذف بهم الى حيث يحبون أو لا يحبون

وقد طرقت باباً من أبواب الاصلاح فى أمتنا والتمست وجها من وجوهه فى قسم من أفراد الأمة له الأثر العظيم فى مجموعها

وأتيت فى ذلك بما أظنه صواباً فان أخطأت فلى من حسن النية ما أرجو معه غفران سيئة خطأى . وان أصبت كما أظن وجب على أولئك المتعلمين أن يعملوا على نشر ما أودعته فى هذه الوريقات وتأييده بالقبول والعمل

تمهيد

﴿ حالة المرأة فى الهيئة الاجتماعية تابعة لحالة الآداب فى الامة ﴾

انى أدعو كل محب للحقيقة أن يبحث معى فى حالة النساء المصريات وأنا على يقين من أنه يصل وحده الى النتيجة التى وصلت اليها وهى ضرورة الاصلاح فيها . هذه الحقيقة التى أنشرها اليوم شغلت فكرى مدة طويلة كنت فى خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها حتى اذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر منى وزاحمت غيرها وتغلبت عليه وصارت تشغلنى بورودها وتنبهنى الى مزاياها وتذكرنى بالحاجة اليها فرأيت أن لامناص من ابرازها من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر

ومن أحكم الأشياء التى يدور عليها تقدم النوع الانسانى ويؤكد حسن مستقبله هذه القوة الغريبة التى تدفع الانسان

الى نشر كل فكرة علمية أو أدبية متى وصلت الى غاية نموها الطبيعى فى عقله واعتقد أنها تساعد على تقدم أبناء جنسه ولو تيقن حصول الضرر لشخصه من نشرها . تلك قوة يدرك سلطانها من وجد فى نفسه شيئاً منها . يشعر أنه ان لم يسابقها الى ماتندفع اليه ولم يستنجد بقية قواه لمعاونتها على استكمال ماتهيأت له غالبته ان غالبها وقاومته ان قاومها وقهرته ان عمل فى قهرها وظهرت فى غير مايحب من مظاهرها كأنها الغاز المحبوس لايكتم بالضغط ولكن الضغط يحدث فيه فرقعة قد تأتى على هلاك ماحواه

والبراهين على ذلك كثيرة فى الماضى فان تاريخ الأمم مملوء بالمناقشات والجدل والجلاد والحروب التى قامت فى سبيل استعلاء فكر على فكر ومذهب على مذهب وكانت الغلبة تارة للحق وأخرى للباطل وكانت الامم الاسلامية على هذه الحال فى القرون الأولى والوسطى . ولم يزل الأمر على ذلك أو يزيد فى البلاد الغربية التى يصح أن يقال فيها ان حياتها جهاد مستمر بين الحق والباطل والخطأ والصواب : جهاد داخلى بين أفراد الأمة فى جميع فروع المعارف والفنون والصنائع . وجهاد خارجى بين الامم بعضها مع بعض . خصوصاً فى هذا القرن الذى الغت فيه الاختراعات الحديثة المسافات والأبعاد وهدمت الحدود الفاصلة والاسوار المانعة حتى

ان الاشخاص الذين ساحوا فى جميع أنحاء الارض يعدون بالالوف. واذا ألف رجل من مشاهيرهم كتاباً ترجم فى أثناء طبعه وظهر فى خمس أو ست لغات فى آن واحد!

ولم يركن الى حب السكينة الا أقوام على شاكلتنا فقد أهملنا خدمة عقولنا حتى أصبحت كالارض البائرة التى لا يصلح فيها نبات وحتى مال بنا الكسل الى معاداة كل فكر صالح مايعده أهل الوقت حديثاً غير مألوف سواء كان من السنن الصالحة الاولى أو قضت به المصالح فى هذه الازمنة

وكثيراً مايكتنى الكسول وضعيف القوة فى الجدل بان يقذف بكلمة باطلة على حق ظاهر يريد أن يدفعه فيقول تلك بدعه فى الاسلام مما يرمى بهذه الكلمة الا حب التخلص من مشقة الفهم أو الخروج ون عناء العمل فى البحث أو الاجراء : كأن الله خلق المسلمين من طينة خاصة بهم وأقالهم من أحكام النواميس الطبيعية التى يخضع لسلطانها النوع الانسانى وسائر المخلوقات الحية

سيقول قوم ان ما انشره اليوم بدعة . فاقول نعم أتيت ببدعة ولكنها ليست فى الاسلام . بل فى العوائد وطرق المعاملة التى يحمد طلب الكمال فيها .

لم يعتقد المسلم ان عوائده لاتتغير ولاتتبدل وانه يلزمه ان يحافظ

عليها الى الأبد ؛ ولم يجر على هذا الاعتقاد فى عمله مع أنه هو وعوائده جزاؤ من الكون الواقع تحت حكم التغيير والتبديل فى كل آن ؟ أيقدر المسلم على مخالفة سنة الله فى خلقه اذ جعل التغيير شرط الحياة والتقدم والوقفة والجمود مقترنين بالموت والتأخر ؟ أليست العادة عبارة عن اصلاح أمة على سلوك طريق خاصة فى معيشتهم ومعاملاتهم حسبما يناسب الزمان والمكان ؟ من ذا الذى يمكنه ان يتصور أن العوائد لا تتغير بعد أن يعلم انها ثمرة من ثمرات عقل الانسان وان عقل الانسان يختلف باختلاف الأماكن والأزمان ؟ المسلمون منتشرون فى اطراف الارض . فهل هم انفسهم متحدون فى العادات وطرق المعاش ؟ من ذا الذى يمكنه ان يدعى ان ما يستحسنه عقل السودانى يستحسنه عقل التركى أو الصينى أو الهندى . او أن عادة من عادات البدوى توافق أهل الحضر أو يزعم ان عوائد أمة من الامم مهما كانت بقيت جميعها على ما كانت عليه من عهد نشأتها بدون تغيير ؟

والحقيقة ان كل أمة فى كل مدة من الزمن عوائد وآدابا خاصة بها موافقة لحالتها العقلية . وان تلك العوائد والآداب تتغير دائما تغيراً غير محسوس تحت سلطان الأقليم والوراثة والمخالطات والاختراعات العلمية والمذاهب الأدبية والعقائد الدينية والنظامات والسياسية وغير ذلك . وان كل حركة من حركات العقل نحو

التقدم يتبعها حتماً أثر يناسبها فى العادات والآداب . وعلى ذلك يلزم أن يكون بين عوائد السودانى والتركى مثلا من الاختلاف بقدر مايوجد بين مرتبتهما فى العقل . وهو الامر المشهور الذى لاريبة فيه . وعلى هذه النسبة يكون الفرق بين المصرى والاروباوى

ولا يمكن ان يتصور أحد أن العادات التى هى عبارة عن طريق سلوك الانسان فى نفسه ومع عائلته ومواطنيه وابناء جنسه تكون فى أمة جاهلة متوحشة مثل ماتكون فى أمة متمدنة لان سلوك كل فرد منها انما يكون على ماينا سب مداركه ودرجة تربيته

ولهذا الارتباط التام بين عادات كل أمة ومنزلتها من المعارف والمدنية نرى ان سلطان العادة أنفذ حكماً فيها من كل سلطان وهى أشد شؤونها لصوقاً بها وابعدها عن التغيير ولا حول للأمة عن طاعتها الا اذا تحولت نفوس الامة وارتفعت أو انحطت عن درجتها فى العقل ولهذا نرى انها تتغلب دائماً على غيرها من العوامل والمؤثرات حتى على الشرائع . ويؤيد ذلك مانشاهده كل يوم فى بلادنا من أن القوانين واللوائح التى توضع لاصلاح حال الامة تنقلب فى الحال الى آلة جديدة للفساد . وليس هذا بغريب فقد تتغلب العادات على الدين نفسه فتفسده وتمسحه بحيث ينكره كل من عرفه

وهذا هو الاصل فيما نشهده ويؤيده الاختبار التاريخى من

التلازم بين انحطاط الامة وتوحشها وبين ارتقاء المرأة وتقدم الامة ومدنيتها . فقد علمنا ان فى ابتداء تكون الجمعيات الانسانية كانت حالة المرأة لاتختلف عن حالة الرقيق فى شىء وكانت واقعة عند الرومان واليونان مثلا تحت سلطة أبيها ثم زوجها ثم من بعده أكبر أولادها. وكان لرئيس العائلة عليها حق الملكية المطلقة فيتصرف فيها بالبيع والهبة والموت متى شاء ويرثها من بعده ورثته بما عليها من الحقوق المخلوقة لمالكها . وكان من المباح عند العرب قبل الاسلام أن يقتل الاباء بناتهم وان يستمتع الرجال بالنساء من غير قيد شرعى ولا عدد محدود . ولا تزال هذه السلطة الآن سائدة عند قبائل افريقيا وامريكا المتوحشة . وبعض الامم الاسيوية يعتقد أن المرأة ليس لها روح خالدة وانها لاينبغى أن تعيش بعد زوجها . ومنهم من يقدمها الى ضيفه اكراماً له كما يقدم له أحسن متاع

كل هذا يشاهد فى الجمعيات الناشئة التى لم تقم على نظامات عمومية بل كل مافيها يقوم برابط العائلة والقبيلة والقوة هى القانون الوحيد الذى تعرفه . وهكذا الحال الآن فى البلاد التى تدار بحكومة استبدادية لانها تحكم كذلك بقانون القوة

اما فى البلاد التى ارقت الى درجة عظيمة من التمدن فانا نرى النساء احذن يرفعن شيئاً فشيئاً من الانحطاط السابق وصرن يقطعن

المسافات التى كانت تبعدهن عن الرجال . هـذه تحبو وتلك تخطو وهذه تمشى وتلك تعدو كل ذلك بحسب حال الجمعية التى تنتسب اليها ودرجة المدنية فيها . فالمرأة الامريكية فى أول صف ثم تتلوه الانجليزية وتأتى بعدها الالمانية وتليها الفرنساوية ثم النمساوية ثم التليانية ثم الروسية الخ . كلها نفوس شعرت أنها حقيقة بالاستقلال فهى تبحث عن الوسائل لنيله . وانها جديرة بالحرية فهى تسعى للوصول اليها وأنها من نوع الانسان فهى تطالب بكل حق للانسان

والغربى الذى يحب ان ينسب كل شىء حسن الى دينه يعتقد أن المرأة الغربية ترقت لأن دينها المسيحى ساعدها على نيل حريتها ولكن هذا الاعتقاد باطل فان الدين المسيحى لم يتعرض لوضع نظام يكفل حرية المرأة ولم يبين حقوقها بأحكام خاصة أو عامة . ولم يرسم للناس فى هذا الموضوع مبادىء يهتدون بها . وقد أقام هذا الدين فى كل امة دخل فيها بدون ان يترك اثراً محسوساً فى الأخلاق من هذه الجهة بل تشكل نفسه بالشكل الذى أفادته اياه اخلاق الامم . وعاداتها ولو كان لدين ما سلطة وتأثير على العوائد لكانت المرأة المسلمة اليوم فى مقدمة نساء الأرض

سبق الشرع الاسلامى كل شريعة سواه فى تقرير مساواة المرأة للرجل فأعلن حريتها واستقلالها يوم كانت فى حضيض

الانحطاط عند جميع الامم وخولها كل حقوق الانسان واعتبر لها كفاءة شرعية لاتنقص عن كفاءة الرجل فى جميع الأحوال المدنية من بيع وشراء وهبة ووصية من غير أن يتوقف تصرفها على إذن أبيها أوزوجها . وهذه المزايا التى لم تصل الى اكتسابها حتى الآن بعض النساء الغربيات كلها تشهد على أن من أصول الشريعة السمحاء احترام المرأة والتسوية بينها وبين الرجل . بل ان شريعتنا بالغت فى الرفق بالمرأة فوضعت عنها احمال المعيشة ولم تلزمها بالاشتراك فى نفقة المنزل وتربية الأولاد خلافا لبعض الشرائع الغربية التى سوت بين الرجل والمرأة فى الواجبات فقط وميزت الرجل فى الحقوق

والميل أن تسوية المرأة بالرجل فى الحقوق ظاهر فى الشريعة الاسلامية حتى فى مسئلة التحلل من عقدة الزواج فقد جعلت لها فى ذلك طرقاً جديرة بالاعتبار سيأتى الكلام عنها خلافا لما يتوهمه الغربيون و بظنه بعض المسلمين

ولم أر الا مسئلة واحدة ميز الشرع فيها الرجال على النساء وهى تعدد الزوجات . والسبب فى ذلك واضح يتعلق بمسئلة النسب التى لايقوم للزواج حياة بدونها وسيأتى الكلام عليها أيضاً فيما يلى . وبالجملة فليس فى احكام الديانة الاسلامية ولافيما ترمى اليه من

مقاصدها مايمكن ان ينسب اليه انحطاط المرأة المسلمة . بل الأمر بالعكس فانها اكسبتها مقاماً رفيعاً فى الهيئه الاجتماعية

لكن وآسفاه قد تغلبت على الدين الجميل اخلاق سيئة ورثناها عن الأمم التى انتشر فيها الاسلام ودخلت فيه حاملة لما كانت عليه من عوائد وأوهوام ولم يكن العرفان قد بلغ بتلك الامم حداً يصل بالمرأة الى المقام الذى احلتها الشريعة فيه وكان اكبر عامل فى استمرار هذه الأخلاق توالى الحكومات الاستبدادية علينا

تجردت الجمعيات الاسلامية على اختلاف الأزمان والاماكن من النظامات السياسية التى تحدد حقوق الحاكم والمحكوم وتخول للمحكومين مطالبة الحاكمين بالوقوف عند الحدود المقررة لهم بمقتضى الشريعة والنظام . بل اخذت حكومتها الشكل الاستبدادى دائماً فكان لسلطانهم واعوانه سلطة مطلقة فحكموا كيف شاؤا بلا قيد ولا استشارة ولا مراقبه وأداروا مصالح الرعية بدون أن يكون له صوت فيها

نعم ان كان الحاكم صغيراً أو كبيراً ملزماً باتباع العدل واجتناب الظلم لكن من المجرب أن السلطة غير المحدودة تغرى بسوء الاستعمال اذا لم تجد حداً تقف أمامه ورأيا يناقشها وهيئة تراقبها . ولهذا مضت القرون على الامم الاسلامية وهى تحت حكم

الاستبداد المطلق وأساء حكامها فى التصرف وبالغوا فى اتباع اهوائهم واللعب بشؤون الرعاية . بل لعبوا بالدين نفسه فى أغلب الأزمنة . ولايستثنى منهم الاعدد قليل لايكاد يذكر بالنسبه الى غالبهم

اذاغلب الاستبداد على أمة لم يقف أثره فى الانفس عندماهو فى نفس الحاكم الأعلى ولكنه يتصل منه بمن حوله ومنهم الى من دونهم وينفث روحه فى كل قوى بالنسبة لكل ضعيف متى مكنته القوة من التحكم فيه . يسرى ذلك فى النفوس رضى الحاكم الأعلى أولم يرض

كان من أثر هذه الحكومات الاستبدادية أن الرجل فى قوته أخذ يحتقر المرأة فى ضعفها . وقد يكون من أسباب ذلك ان أول أثر يظهر فى الامة المحكومه بالاستبداد هو فساد الاخلاق

قد يمكن ان يتوهم من اول وهلة ان الشخص الواقع عليه الظلم تحت العدل ويميل الى الشفقة لما يقاسيه من المصائب التى تتوالى عليه . لكن المشاهد يدل على ان الامة المظلومة لايصلح جوها ولاتنفع ارضها لنمو الفضيلة ولايربوا فيها الانبات الرذيلة . وكل المصريين الذين عاشوا تحت حكم المستبدين السابقين ـ واما العهد منهم ببعيد ـ يعلمون ان شيخ البلد الذى كان يسلب منه عشرة جنيهات

كان يستردها مئة من الاهالى . والعمدة الذى كان يضرب مائة كرباج عند عودته الى بلدته ينتقم من مائة فلاح

فمن طبيعة هذه الحالة ان الانسان لايحترم الاالقوة ولا يردع الابالخوف . ولما كانت المرأة ضعيفة اهتضم الرجل حقوقها واخذ يعاملها بالاحتقار والامتهان وداس بأرجله على شخصيتها . عاشت المرأة فى انحطاط شديد ايا كان عنوانها فى العائلة زوجة او اما او بنتاً ليس لها شأن ولااعتبار ولارأى خاضعة للرجل لانه رجل ولانها امرأة . ففى شخصها فى شخص الرجل ولم يبق لها من الكون مايسعها الاما استتر من زوايا المنازل واختصت بالجهل والتحجب باستار الظلمات واستعملها الرجل متاعا للذة . يلهو بها متى أراد . ويقذف بها فى الطرق متى شاء . له الحرية ولها الرق . له العلم ولها الجهل . له العقل ولها البله . له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن . له الامر والنهى ولها الطاعة والصبر . له كل شىء فى الوجود وهى بعض ذلك الكل الذى استولى عليه .

من احتقار الرجل للمرأة أن يملأ بيته بجوار بيض اوسود أوبزوجات متعددة يهوى الى أيهن شاء منقاداً الى الشهوة مسوقا بباعث الترف وحب استيفاء اللذة غير مبال بما فرضه عليه الدين من حسن القصد فيما يعمل ولا بما أوجبه عليه من العدل فيما يأتى

من احتقار المرأة ان يطلق الرجل زوجته بلاسبب

من احتقار المرأة أن يقعد الرجل على مائدة الطعام وحده ثم تجتمع النساء من أم وأخت وزوجة ويأكلن مافضل منه

من احتقار المرأة ان يعين لها محافظاً على عرضها مثل اغا او مقدم أو خادم يراقبها ويصحبها أينما تتوجه

من احتقار المرأة أن يسجنها فى منزل ويفتخر بأنها لاتخرج منه الا محمولة على النعش الى القبر

من احتقار المرأة أن يعلن الرجال ان النساء لسنا محلا للثقة والامانة

من احتقار المرأة أن يحال بينها وبين الحياة العامة والعمل فى أى شئ يتعلق بها : فليس لها رأى فى الاعمال ولافكر فى المشارب ولا ذوق فى الفنون ولا قدم فى المنافع العامة ولامقام فى الاعتقادات الدينية وليس لها فضيلة وطنية ولا شعور ملى

ولست مبالغاً ان قلت ان ذلك كان حال المرأة فى مصر الى هذه السنين الاخيرة التى خفت فيها نوعاً سلطة الرجل على المرأة تبعاً لتقدم الفكر فى الرجال واعتدال السلطة الحاكمة عليهم ورأينا النساء يخرجن لقضاء حاجاتهن ويترددن على المنتزهات العمومية لاستنشاق الهواء وترويح النفوس بتسريح النظر فى الكائنات التى

عرضها الصانع جل شأنه على نظر كل مخلوق رجلا كان أو امرأة . وكثير منهن يذهبن مع رجالهن الى السياحة فى بعض البلاد الاخرى وكثير من الرجال قد أعطوا لنسائهن مقاماً فى الحياة العائلية

وهذا انما طرأ على بعض الرجال من نشأة الثقة فى نفوس أولئك الرجال بنسائهم واطمئنانهم الى أمانتهن : وهو احترام جديد للمرأة

نعم لاننكران هذا التغيير لا يخلو من وجوه انتقاد . لكن سبب الانتقاد فى الحقيقة ليس هو نفس التغيير ولكنه الاحوال التى احتفت به وأهمها رسوخ عادة الحجاب فى أنفس الجمهور الاعظم ونقص تربية النساء . فلو كملت تربية النساء على مقتضى الدين وقواعد الادب ووقف بالحجاب عند الحد المعروف فى أغلب المذاهب الاسلامية سقطت كل تلك الانتقادات وأمكن للامة أن تنتفع بجميع افرادها نساء ورجالا

﴿ تربية المرأة ﴾

المرأة وما أدراك ما المرأة . انسان مثل الرجل . لاتختلف عنه فى الاعضاء ووظائفها ولا فى الاحساس ولا فى الفكر ولا فى كل ماتقتضيه حقيقة الانسان من حيث هو انسان اللهم الا بقدر مايستدعيه اختلافهما فى الصنف

فاذا فاق الرجل المرأة فى القوة البدنية والعقلية فذلك انما لانه اشتغل بالعمل والفكر اجيالا طويلة كانت المرأة فيها محرومة من استعمال القوتين المذكورتين ومقهورة على لزوم حالة من الانحطاط تختلف فى الشدة والضعف على حسب الاوقات والاماكن

ولا يزال الناس عندنا يعتقدون أن تربية المرأة وتعليمها غير واجبين . بل انهم يتساءلون هل تعليم المرأة القرآءة والكتابة مما يجوز شرعاً أو هو محرم بمقتضى الشريعة !

وأتذكر انى أشرت يوماً على أب وقد رأيت معه بنتا بلغت من العمر تسع سنوات أعجبنى جمالها وذكاءها بان يعلمها فاجابنى « وهل تريد أن تعطيها وظيفة الحكومة ؟ » فاعترضت عليه قائلا. « وهل فى مذهبك لايتعلم الا الموظفون ؟ » فاجابنى . — « انى أعلمها جميع مايلزم لادارة منزلها ولا افعل غير ذلك » قال هذا على وجه يشعر انه لايحب المناقشة فى رأيه . ويعنى هذا الاب العنيد بادارة المنزل أن بنته تعرف شيئاً من صناعة الخياطة وتجهيز الطعام واستعمال المكوى وما أشبه ذلك من المعارف التى لاأنكر انها مفيدة بل لازمة لكل امرأة . ولكنى أقول ولا أخشى نكيراً انه مخطئ فى توهمه ان المراة التى لايكون لها من البضاعة الا هذه المعارف يوجد عندها من الكفاءة مايؤهلها الى ادارة منزلها

ففى رأيى ان المرأة لا يمكنها أن تدير منزلها الا بعد تحصيل مقدار معلوم من المعارف العقلية والادبية . فيجب أن تتعلم كل ماينبغى أن يتعلمه الرجل من التعليم الابتدائى على الاقل حتى يكون لها المام بمبادىء العلوم يسمح لها بعد ذلك باختيار مايوافق ذوقها منها واتقانه بالاشغال به متى شاءت

فاذا تعلمت المرأة القرآءة والكتابة واطلعت على أصول الحقائق العلمية وعرفت مواقع البلاد وأجالت النظر فى تاريخ الامم ووقفت على شىء من علم الهيئة والعلوم الطبيعية وكانت حياة ذلك كله فى نفسها غير فانها العقائد والآداب الدينية استعد عقلها لقبول الآراء السليمة وطرح الخرافات والاباطيل التى تفتك الآن بعقول النساء

وعلى من يتولى تربية المرأة أن يبادرها من بداية صباها بتعويدها على حب الفضائل التى تكمل بها النفس الانسانية فى ذاتها . والفضائل التى لها أثر فى معاملة الاهل وحفظ نظام القرابة . والفضائل التى يظهر أثرها فى نظام الامة حتى تكون تلك الفضائل جميعها ملكات راسخة فى نفسها : ولا يتم له ذلك الا بالارشاد القولى والقدوة الصالحة

هذه هى التربية التى أتمنى أن تحمل عليها المرأة المصرية ذكرتها بالاجمال وهى مفصلة في المؤلفات المخصصة لها فى كل اللغات . ولا

أظن ان المرأة بدون هذه التربية يمكنها أن تقوم بوظيفتها فى الهيئة الاجتماعية وفى العائلة :

أما بالوظيفة الاجتماعية

فلأن النساء فى كل بلد يقدرن بنصف سكانه على الاقل فبقاؤهن فى الجهل حرمان من الانتفاع باعمال نصف عدد الامة وفيه من الضرر الجسيم ما لايخفى

ولا شئ يمنع المرأة المصرية من أن تشتغل مثل الغربية بالعلوم والآداب والفنون الجميلة والتجارة والصناعة الاجهلها واهمال تربيتها ولو أخذ بيدها الى مجتمع الاحياء ووجهت عزيمتها الى مجاراتهم فى الاعمال الحيوية واستعملت مداركها وقواها العقلية والجسمية لصارت نفساً حية فعالة تنتج بقدر ماتستهلك لا كما هى اليوم عالة لا تعيش الا بعمل غيرها ولكان ذلك خيراً لوطنها لما ينتج عنه من ازدياد الثروة العامة والثمرات العقلية فيه

وانما مثلنا الآن مثل رجل يملك رأس مال عظيم فيدعه فى الصندوق ويكتفى بان يفتح صندوقه كل يوم ليتمتع برؤية الذهب ولو عرف لاستعمله وانتفع منه وضاعفه فى سنين قليلة

من عوامل الضعف فى كل مجتمع انسانى أن يكون العدد العظيم من افراده كلا عليه لاعمل له فيما يحتاج عليه وان عمل كان

كالآلة الصماء أو الدابة العجماء لايدرى مايصدر منه

المرأة محتاجة الى التعليم لتكون انساناً يعقل ويريد . بلغ من أمر المرأة عندنا اننا اذا تصورناها وجدنا من لوازم تصورها ان يكون لها ولى يقوم بحاجاتها ويدير شؤونها كأن وجود هذا الولى امر مضمون فى جميع الاحوال مع ان الوقائع اظهرت لنا ان كثيراً من النساء لا يجدن من الرجال من يعولهن فالبنت التى فقدت أقربائها ولم تتزوج والمرأة المطلقة والارملة التى توفى زوجها والوالدة التى ليس لها أولاد ذكور أولها أولاد قصر ـ كل هذه المذكورات يحتجن الى التعليم ليمكنهن القيام بما يسد حاجاتهن وحاجات أولادهن ان كان لهن أولاد . أما تجردهن عن العلم فيلجؤهن الى طلب الرزق بالوسائل المخالفة للآداب أو الى التطفل على بعض العائلات الكريمة

ويمكن أن يقال اننا لو بحثنا عن السبب الذى قد يحمل تلك المرأة المسكينة التى تبذل نفسها فى ظلام الليل لأول طالب . وما أكبر هذه المذلة على المرأة ـ لوجدنا فى الأغلب شدة الحاجة الى زهيد من الذهب والفضة . وقلما كان الباعث على ذلك الميل الى تحصيل اللذة

ثم انه لا يكاد تخلو عائلة مصرية من تحمل نفقات عدد من النساء اللاتى وقعن فى العوز ولا قدرة لهن على العمل للخروج منه.

ويمكننا أن نعد هذا من الاسباب المانعة للعائلات من السير على قواعد الاقتصاد

لهذا السبب وغيره نرى الاختلال الجسيم فى مالية العائلات فان الرجل المصرى الذى يشتغل لكسب عيشه وعيش أولاده يرى شطراً من المال الذى يجمعه ينفق على أشخاص من أقاربه أو معارفه أو ممن لا علاقة له بهم ولكن تلزمه الرأفة الانسانية بان يبذل لهم من كسبه مايستطيع كيلا يموتوا جوعاً . وهم يرون أنه انما يفعل ما يجب عليه ومع ذلك هم قادرون على الكسب ولكن يحول بينهم وبينه جهلهم باستعمال ما أوتوا من القوة وذلك بسب ماحرموا من التربية

ولو فرض أن المرأة لاتخلو من زوج أو ولى ينفق عليها أفلا تكون التربية ضرورية لمساعدة ذلك العائل ان كان فقيراً أو تخفيف شيء من أثقال ادارة المال داخل البيت ان كان غنياً فان كانت المرأة غنية بنفسها ـ وهو نادر ـ بأن كان لها ايراد من عقارات ونحوها أفلا يفيدها التعليم فى تدبير ثروتها وادارة شؤونها ؟

ترى النساء كل يوم فى اضطرار الى تسليم أموالهن الى قريب او اجنبى . ونرى وكلاءهن يشتغلون بشؤون أنفسهم أكثر مما يشتغلون بشؤون موكلاتهم فلا يمضى زمن قليل الا وقد اغتنى

الوكيل وافتقر الاصيل

نرى النساء يضعن اختامهن على حساب او مستند او عقد يجهلن موضوعه او قيمته واهميته لعدم ادراكهن كل مايحتوى عليه أو عدم كفاءتهن لفهم ما اودعه فتجرد الواحدة منهن عن حقوقها الثابتة بتزوير او غش او اختلاس يرتكبه زوجها او أحد اقاربها او وكيلها . فهل كان يقع ذلك لو كانت المرأة متعلقمة ؟

على أن التعليم فى حد ذاته هو فى كل حال حاجة من حاجات الحياة الانسانية . وهو الآن من الحاجات الأولى فى كل مجتمع دخلت فيه المدنية . وأصبح العلم هو الغاية الشريفة التى يسعى اليها كل شخص يريد أن يحصل سعادته المادية والروحية . ذلك لان العلم هو الوسيلة الوحيدة التى يرتفع بها شأن الانسان من منازل الضعة والانحطاط الى مراقى الكرامة والشرف . ولكل نفس حق طبيعى فى تنمية ملكاتها الغريزية الى أقصى حد ترمى اليه باستعدادها

وقد جاءت الشرائع الالهية والقوانين الوضعية تخاطب النساء كما تخاطب الرجال . والفنون الجميلة والصنائع والمخترعات والفلسفة العالية كل ذلك يستلفت من المرأة مثل ما استلفته من الرجال . فأى نفس شريفة لاتشتاق الى مطالعتها والتمتع بكنوزها طلباً للحقيقة وللسعادة فى الدنيا والآخرة ؟ وأى فرق بين الرجل والمرأة فى هذا

الشوق ونحن نرى أن الصبيان من الذكور والأناث يستوون فى الاستفهام عن كل شيء يعرض لهم وطلب العلم بأسباب مايقع تحت أبصارهم من الحوادث ؟ وربما كان الولع بذلك فى الانثى أشد منه فى الذكر

أى نفس حساسة ترضى بالمعيشة فى قفص مقصوصة الجناح مطأطأة الرأس مغمضة العينين وهذا الفضاء الواسع الذى لانهاية له أمامها والسماء فوقها والنجوم تلعب ببصرها وأرواح الكون تناجيها وتوحى اليها الآمال والرغائب فى فتح كنوز أسرارها ؟

التكاليف الشرعية تدلنا على أن المرأة وهبت من العقل مثل ماوهب الرجل . أيظن رجل لم يعمه الغرض ان الله قد وهبها من العقل ماوهبها عبثاً . وانه أتاها من الحواس وآلات الادراك ما أتاها لاجل أن تهملها ولا تستعملها ؟

يقول المسلمون ان النساء ربات الخدور يعمرن المنازل وان وظيفتهن تنتهى عند عتبة باب البيت . وهو قول من يعيش فى عالم الخيال وضرب بينه وبين الحقيقة بحجاب لاينفذ بصره الى ماوراءه

ولو تبصر المسلمون لعلموا أن اعفاء المرأة من أول واجب عليها وهو التأمل لكسب ضروريات هذه الحياة بنفسها هو

السبب الذى جر ضياع حقوقها . فان الرجل لما كان مسؤولا عن كل شىء استأثر بالحق فى التمتع بكل حق ولم يبق للمرأة حظ فى نظره الا كما يكون لحيوان لطيف يوفيه صاحبه ما يكفيه من لوازمه تفضلا منه على أن يتسلى به

مضت الأجيال عندنا والمرأة خاضعة لحكم القوة مغلوبة لسلطان الاستبداد من الرجل وهو لم يشأ أن يتخذها الا أمراً صالحاً لخدمته مسيراً بارادته . وأغلق فى وجهها أبواب المعيشة والكسب بحيث آل أمرها الى العجز عن تناول وسيلة من وسائل العيش بنفسها ولم يبق أمامها من طرقه الا أن تعيش ببعضها اما زوجة أو مفحشة

ولما لم يبق للعقل ولا للاعمال النافعة قيمة لديها وانما بضاعتها أن تسلى الرجل وتمتعه من اللذة بجسمها بما شاء وجهت جميع قواها الى التفنن فى طرق استمالته اليها والاستيلاء على اهوائه وخواطر نفسه

مضت تلك الازمان الطويلة على المرأة ولم يمس عقلها شىء من التربية الصحيحة فضعفت منها القوة العاقلة والمفكرة وانفرد الحس بالتصرف فى ارادتها . فحسها هو المميز عندها بين الخير والشر . وهو الرائد لها فى الاختيار بين النفع والضرر . فهى تنفر

أو تميل . فان أحبت أخلصت لاعن عقل . وصدرت منها الاعمال الجميلة فى ماتحب ومن تحب بمحض الهوى لا بأصالة الرأى . وان نفرت ارتكبت أكبر الجرائم غير بصيرة بالعواقب ولا عارفة بالمصائر . فلو كانت العناية بتربية عقلها وتنمية الملكات الفاضلة فيها لنمت بذلك قوة الحكم على أحساسها ولتصرفت فى أعمالها على مقتضى الحكمة وقواعد الادب

أضلت المرأة عقلها فى ظلمات الاجيال الماضية ففقدت رشدها وادركها العجز عن تناول ماتشتهى من الطرق المسنونة فاضطرت الى استعمال الحيلة وأخذت تعامل الرجل - وهو سيدها وولى أمرها - كما يعامل المسجون حارس سجنه والحفيظ عليه . ونمت فيها ملكة المكر الى غاية ليس وراءها منزع . فاصبحت ممثلة ماهرة او مشخصة قادرة تظهر فى المظاهر المتضادة والألوان المختلفة فى كل حال بحسبها . ذلك لاعن عقل وحكمة وانما هى حيل الثعالبة

ولكن لالوم عليها وعذرها انها ليست حرة . وانما فقدت الحرية لانها فقدت السلامة فى قوة التميز . بل اللوم كل اللوم على الرجل : اريد بهم من سبقنا ممن اهملوا تربية نسائنا

٢ - واما بالنسبة للوظيفة العائلية

فيكفى لكل انسان متفكر ان يتأمل فى حالة عائلته ليتأكد

ان استمرار الحال على ماهى عليه الآن صار مما لا يمكن احتماله

انى اكتب هذه السطور وذهنى مفعم بالحوادث التى وردت على التجربة وأخذت بمجامع خواطرى . ولاأريد أن أذكر شيئاً منها لعلمى أنها ماتركت ذهناً حتى طافت به ولاخاطراً حتى وردت عليه . فان مثار هذه الحوادث جميعها هوشىء واحد وهو المرض الملم بجميع العائلات لافرق بين فقيرها وغنيها ورفيعها وهو جهل المرأة . فقد تساوت النساء عندنا فى الجهل مساواة غير محبوبه ولا يظهر اختلافهن الا فى الملبس والحلى . بل يمكن ان يقال انه كلما ارتفعت المرأة مرتبة فى اليسر زاد جهلها . وان آخر طبقة من نساء الامة وهى التى تسكن الأرياف هى اكملهن عقلا بنسبة حالها

المرأة الفلاحة تعرف كل مايعرفه الرجل الفلاح مداركهما فى مستو واحد لايزيد احدهما عن الآخر تقريباً مع أننا نرى ان المرأة فى الطبقة العالية أو الوسطى متأخرة عن الرجل بمسافات شاسعة . ذلك لان الرجال فى هذه الطبقات تربت عقولهم واستنارت بالعلوم ولم تتبعهم نساؤهم فى هذه الحركة بل وقفن فى الطريق . وهذه الاختلاف هو اكبر سبب فى شقاء الرجل والمرأة معاً

فالرجل المتعلم يحب النظام والتنسيق فى منزله وله ذوق مهذب

يميل الى الاشكال اللطيفة والاحساسات الدقيقة والالتفاتات الرقيقه ويبلغ الاهتمام بها عند بعض الافراد حداً ينتهى الى اهمال الامور المادية . يفهم بكلمة ويود لو يفهم بالاشارة . يسكت فى أوقات ويتكلم فى أخرى ويضحك فى غيرها . له أفكار يحبها ومذهب يشغله وجمعية يخدمها ووطن يعزه . له لذائذ وآلام معنوية فيبكى مع الفقير ويحزن مع المظلوم ويفرح بالخير للناس . وفى كل فكرة تتولد فى ذهنه واحساس يؤثر على أعصابه يود أن يجد بجانبه انساناً آخر فيشرح له مايشعر به ويتسامر معه . وهذا ميل طبيعى يجده كل شخص من نفسه . فاذا كانت امرأته جاهلة كتم أفراحه واحزانه عنها ولم يلبث ان يرى نفسه فى عالم وحده وامرأته فى عالم آخر . اذهى تعتبر ان الرجل ماخلق فى هذه الدنيا الا ليشترى لها القشة الغالية والجواهر النفيسة وليصرف أوقاته لا ملاعبتها كانه صورة أكبر من التى كان يشتريها لها والدها فى صغرها لتلهو بها

ومتى رأى الرجل امرأته بهذه المنزلة من الجهل بادر الى نفسه احتقارها واعتبرها من الاعدام التى لا أثر لها فى شؤونه وهى متى رأته اهمل واغضى ضاق صدرها وظنت أنه يظلمها وبكت سوء حظها الذى ساقها الى رجل لا يقدرها قدرها ونبتت البغضاء فى قلبها . ومن ثم تبتدىء عيشة لا أظن الجحيم أشد نكالا منها .

عيشة يرى كل منهما فيها ان صاحبه هو العدو الذى يحول بينه وبين السعادة

ولا يظن أن هذا يختص بذوى الاخلاق الفاسدة من الرجال والنساء . فقد تكون المرأة طيبة صالحة والرجل شريف الاحساس ولكن العيشة بينهما خصام مستمر ولا ذنب على أحدهما بل الذنب على اختلافهما فى التربية كما تقدم . ومنتهى هذه الحالة ـ ان استمر الاقتران بينهما ـ ان يميت أحدهما حقه فى سبيل راحة الآخر أو يجر كلاهما قيده الثقيل الى آخر العمر . ولكن مهما كان حال الزوج ـ وهما ماذكرنا من الوصف ـ فلا سبيل الى ارتباطهما برابطة المحبة اذا أخذت بمعناها الخاص . ولا خسران فى الدنيا يبلغ فقد لذة الحب بين الرجل والمرأة

جاء فى القصص الدينية المسطورة فى الكتب السماوية ان الله خلق حواء من ضلع آدم . وفيه على ما أظن رمز لطيف الى أن الرجل والمرأة يكونان مجموعاً واحداً لا يتم الا باتحادهما ومن هذا المعنى أخذ العربيون تسميتهم المرأة بنصف الرجل وهو تعبير فصيح يدل دلالة واضحة على ان المرأة والرجل هما شقان لجسم واحد مفتقر بعضه الى بعض ليتم له الكمال بالاجماع

وهذا الانجذاب الغريزى الذى أوجده الله فى كل المخلوقات

الحية حتى النباتات التى يشاهد فى بعضها حركة محسوسة بين الذكر والانثى اذا آن وقت التلقيح على طريقة حار فى تفسيرها علماء الطبيعة — هو أهم عنصر يدخل فى تركيب الحب . وهو يكفى لحدوث الميل بين الرجل والمرأة ولا يختلف فى الانسان عن الحيوان . أما اصل هذا الانجذاب وطبيعته وسببه فهو أمر لا يزال غامضاً كاصول كل الاشياء تقريباً وانما يرجع قسم من العلماء انه سيال يتولد فى المراكز العصبية فمتى وجد هذا الانجذاب بين رجل وامرأة شعروا بضرورة اقترابهما . فاذا تلاقيا أخذت كلا منهما هزة الفرح . تتكلم عيونهما وتترجم عن الاضطرابات التى تهيج قلوبهما قبل أن ينطق اللسان كأن روحيهما صديقتان افترقتا فى عالم قبل هذا العالم وأخذت كل واحدة منهما تبحث عن الأخرى حتى اذا التقتا وجدت كل منهما ضالتها التى كانت تنشدها وتنشأ فيهما بعد اللقاء آمال وامانى اكبر من مجرد التلاقى فتخطلطان ويحدث بينهما شبه العهد على أن لا تفترقا ترى كل واحدة منهما ان لا سعادة لها الا باتصالها بالأخرى

لكن هذا الانجذاب المادى لا يلبث مدة حتى يأخذ فى التلاشى ويتناقص شيئاً فشيئاً فمهما كانت شدة الرغبة عند أول التلاقى فهى صائرة الى الزوال فى زمن يختلف لطوله وقصره باختلاف الأمزجة . وتضمحل تلك الامال وتتساقط تلك امانى ويكاد التقاطع يحل محل

التواصل لولا ما اختص الله به الانسان من القدرة على استدامة تلك العاطفة والاستزادة من لذة الوصال بما يستجلى من بهاء الارواح وسناء العقول . فهو يضم الى المنظر البديع الجسدانى منظراً آخر قد يكون ابدع فى اعتباره وهو المنظر الروحانى العقلى . وكثيراً ما يستبدل لذة الحس التى لا بقاءها بلذة العقل والوجدان التى لا تنتهى اطوارها ولا تفنى مظاهرها . يستويه الحب لمشهد الوجه الجميل وسواد العيون ورشاقة القد وطول الشعر . ولكن يمتزج العشق بروحه حتى يكون كانه طبع لها اذا وجدت بجانب ذلك الجمال لطف الشمائل ورقة الذوق وبهاء الفطنة ونفاذ العقل وسعة العرفان وحسن التدبير والحذق فى العمل مع المحافظة على النظام فيه ونظافة الباطن والظاهر وحنو القلب وصدق اللسان وطهارة الذمة وعظم الامانة والاخلاص فى الولاء ونحو ذلك من الفضائل المعنويه التى ترجع عند العقلاء على جميع المحاسن الجسدانية . ووجدان اللذة بهذه المعانى عنصراً آخر يدخل فى تركيب الحب أيضاً ـ ومن هذين العنصرين يتركب الحب التام

واما ما يروى من أن رجلا عشق امرأة عشقاً روحانياً محضاً أو ان آخر عشق أخرى للذة المادية ليس الا بدون اعتبار تلك الصفات الادبية فقد يكون لأن الاول رجل خيالى والثانى رجل جاهل

شهوى . على أن التجارب دلت على ان هذه الشهوات البترآء ليس لها حظ من البقاء . فهى كالنار ذات اللهب تهب وتنطفى بسرعة واليك بياناً يزيدوضوحاً فى فهم ماتقدم .

اللذة الجسمانية المتحدة فى النوع مهما تخالفت فى الأفراد فهى دائما واحدة . فان أفراد اللذة المتحدة فى النوع تتشابه الى حد تكاد لاتتميز الاباختلاف الزمان أوالمكان مثلا فما يحصل منها أولاهو مايحصل ثانياً وثالثاً ورابعاً وهكذا

ومن البديهى أن تكرار لذة بعينها مهما كانت سواء كانت لذة نظر أولذة سمع أولذة ذوق أولذة لمس يفضى فى الغالب الى فقد الرغبة فيها فيأتى زمن لاتتنبه الاعصاب لها لكثرة تعودها عليها والامر بخلاف ذلك بالنسبة للذة المعنوية . هذه اللذة فى طبيعتها انه يمكن تجددها فى كل آن . تأمل فى مسامرة صديقين تجد انها كنز سرور لايفنى . متى تلاقيا يفرغ كل منهما روحه فى روح الأخر فيسرى عقلهما من موضوع لموضوع وينتقل من الجزئيات الى الكليات ويمر على الآلام والآمال والقبيح والحسن والناقص والكامل . كل عمل أوفكر أوحادث أواختراع يكسب عقلهما غذاء جديداً ويفيدأ نفسهما لذة جديدة . كل مظهر من مظاهر حياة أحدهما العقلية والوجدانية وكل ماتجلت به نفسه من علم وأدب

وذوق وعاطفة تنعكس منه على نفس الآخر لذة جديدة ويزيد فى رابطة الالفة بينهما عقدة جديدة

ومن هنا يعلم مقدار سلطان الحب الحقيقى على الانسان وكيف أن العارف يعتبر العثور على ذلك الحب الشريف من أكبر السعادات فى هذه الدنيا . فان كان المال زينة الحياة فالحب هو الحياة بعينها

فهذا الحب لا يمكن أن يوجد بين رجل وامرأة اذا لم يوجد بينهما تناسب فى التربية والتعليم ولا يجب ان يفهم أن الرجل المتعلم اذا يحب زوجته فهى يمكنها أن تحبه . فان توهم ذلك يعد من الخطأ الجسيم لان الحب الحقيقى الذى عرفت عنصريه المادى والمعنوى لا يبقى الا بالاحترام . والاحترام يتوقف على والمعرفة بمقدار من تحترمه . والمرأة الجاهلة لا تعرف مقدار زوجها

سهل جمهور المتزوجين هل هم محبوبين من نسائهم يجيبونك نعم . لكن الحقيقة غير مايظنون - إنى بحثت كثيراً فى عائلات مما يقال أنها فى اتفاق تام فما وجدت الي الآن لا زوجا يحب امرأته ولا امرأة تحب زوجها . اما هذا الاتفاق الظاهرى الذى يشاهد فى كثير من العائلات فمعناه أنه لا يوجد شقاق بين الزوجين اما الأن الزوج تعب وترك واما لان المرأة تركت زوجها يتصرف فيها كما كما يتصرف المالك فى ماكه واما لانهما الاثنان جاهلان لا يدركان

قيمة الحياة . وهذا الحال الأخير هو حال أغلب الازواج المصريين. ولا أرى مايقرب من السعادة الا فى هـذا النوع الاخير وان كان سعادة سلبية لاقيمة لها

اما فى النوعين الأولين فقد اشترى الوفاق بثمن غال وهو فناء احد الزوجين فى سبيل ابقاء الاخر . وغاية مايمكن ان اسلم به هو أنه قد يشاهد فى عدد قليل من الزواج شيء يقرب من المودة يظهر لا بعض الاحيان ثم يختفى . وهو استثناء يؤيد القاعدة وهى عدم الحب . عدم الحب من طرف الزوج لان امرأته متأخرة عنه فى العقل والتربية تأخراً فاحشاً بحيث لا يكاد توجـد مسئلة يمكن أن يتحدثا فيها لحظة بسرور متبادل . لا يكاد يوجد امر يتفقان فى الحكم عليه برأى واحـد . ولانها بعيدة عن العواطف والمعانى والاشغال التى يميـل اليها ومغمورة فى شؤون ليس لها من ميله نصيب . حتى فى الامور التى هى من عملها وترى أنها خلقت لاجلها لايرى منهـا زوجها مايروق نظره . فاكثر النساء لم يتعودن على تسريح شعورهن كل يوم . ولا على الاستحمام اكثر من مرة لا الاسبوع ولا يعرفن استعمال السواك . ولا يعتنين بمايلى البدن من الملابس مع أن جودتها ونظافتها لهـا أعظم تأثير لاستمالة الرجل ولا يعرفن كيف تتولد الرغبة عنـد الزوج وكيف يحافظ عليها

وكيف يمكن تنميتها وكيف تكون موافاتهـا . ذلك لان المرأة الجاهلة تجهل حركات النفس الباطنة وتغيب عنها معرفة أسباب الميل والنفور فاذا أرادت أن تستميل الرجل جاءت فى الغالب بعكس ذلك

وأما عدم الحب من طرف المرأة فلانها لاتذوق معنى الحب. ولو أردنا أن نحلل احساسها بالنسبة لزوجها نجـد أنه يتركب من أمرين ميل اليه من حيث هو رجل أبيح لها أن تقضى معه شهواتها وشعور بان هذا الرجل نافع لها للقيام بحاجات معيشتها . اما ذلك الامتزاج بين روحين اختارت كل منهما الأخرى من بين آلاف من سواهما امتزاجا تاماً يؤلف منهما موجوداً واحداً كأن كلا منهما صوت والآخر صداه . ذلك الاخلاص التام الذى ينسى الانسان نفسه ولا يدع له فكراً الا فى صاحبـه . ذلك الاخلاص الذى لانجد له مثالا اظهر من حب الوالدة لولدها ـ فهى بعيدة عنه بعد السماء عن الارض . لان الحب بهذه الدرجة ان لم يكن طبيعياً كحب الأم لولدها فهو ثمرة عزيزة لاتطلب الا عند النفوس العالية التى تغلبت فيها العواطف الكريمة على الاستئثار

والزوجـة المصرية مهما كانت لاتعرف من زوجها سوى أنه طويل أو قصير أبيض أو اسود . اما قيمة زوجها العقلية والادبية

وسيرته وطهارة ذمته ودقة احساسه ومعارفه واعماله ومقاصده فى الوجود وكل ماتصاغ منه شخصية الرجل منا ويصير به الى أن يكون محترماً ممدوحاً فى أمته ـ فهذا لا يصل الى عقلها شيء منه . وان وصل فلا يؤثر على منزلته لانفسها . وعلى هذا يكون أول من يجهل الرجل زوجته . فكيف يظن أنها تحبه

نرى نساءنا يمدحن رجالا لا يقبل رجل شريف أن يمد لهم يده ليصافحهم ويكرهن آخرين ممن نعتبر وجودهم شرفاً لنا . ذلك لان المرأة الجاهلة تحكم على الرجل بقدر عقلها . فاحسن رجل عندها هو من يلاعبها طول النهار وطول الليل ويكون عنده مال لا يفنى لقضاء ماتشتهيه من الملابس والحلى والحلوى . وأبغض الرجال عندها من يقضى أوقاته فى الاشغال فى مكتبه . كلما رأته جالساً منحنى الظهر مشغولا بمطالعة كتاب غضبت منه ولعنت الكتب والعلوم التى تسلب منها هذه الساعات وتختلس الحقوق التى اكتسبتها على زوجها . ومن هذا يتولد على الدوام نزاع لا ينتهى الا بنزاع جديد ولا يدرى الزوج المسكين مايصنع اذا أراد أن يجمع بين هذين العدوين : الزوجة والعلم . أراه فى حيرة أشد من الرجل الذى جمع بين زوجتين . فقد رأينا أحياناً كثيرة مظاهر الوفاق بين زوجتين لرجل واحد . وما سمع قط ان امرأة مصرية ممن

نعنى رضيت بمباشرة العلم

ومن البديهى ان الرجل الذى يكون هـذا حاله ينتهى بفقد كل استعداد للعمل . لان العـلم لايثمر الااذا كان العقل متمتعاً بالهدوء والسكون خاليا عن الاضطراب والتشويش . ولان الرجل يطلب راحته وهى فى يد امرأته ولـكنها تبخل بها عليه

رأينا مما تقدم ان المرأة المصرية لاتجـد ذوق الحب خصوصاً اذا كان زوجها متعلماً يصرف وقته فى الاعمال النافعة

قـد يقال أن الحب الذى تكلمت عنه هو من كمال السعادة وليس من الامور الضرورية التى لايستغنى عنها فى الزواج . وأنه عند فقده يمكن أن يعوض بصفات أخرى عند الزوجة ويكـفى أن المرأة تكون رفيقة لزوجها شريكة له فى المنافع والمضار ولذلك فهى تساعده على حاجات الحياة ليتم له بعض السعادة ـ هذا لايمـكن أن يكون . ولـكن كيف الوصول اليه أيضاً مع جهل المرأة

قلت ان المرأة الفلاحة مع جهلها هى زميلة الرجل فى كل أعماله وهى قائمة بخدمة منزلها ومساعدة زوجها . ذلك سهل لان العيشة فى الأرياف ساذجة بدوية تقريباً وحاجات العائلة قليلة . اما فى المدن التى ترقت فيها المعيشة وكثرت الحالات وتشبث طرق المنافع وبلغت فيها ادارة المنزل الى درجة ادارة ومصاحة من كبار المصالح فالمرأة

التى يسلم اليها زمامها لا يمكنها ان تديرها افى بالتعليم والتربية

والحقية أن ادارة المنزل صارت فناً واسعاً يحتاج الى معارف كثيرة مختلفة . فعلى الزوجة وضع ميزانية الايرادو المنصرف بقدر ما يمكن من التدبير حتى لايوجد خلل فى مالية العائلة . وعليها موافقة الخدم بحيث لايفلتون لحظة من مراقبتها وبغير هذا يستحيل ان يؤدوا خدمتهم كما ينبغى . وعليها ان تجعل بيتها محبوبا الى زوجها فيجد فيه راحته ومسرته اذا آوى اليه . فتحلوا له الاقامة فيه ويلذله المطعم والمشرب والمنام فلا يطلب المفر منه ليمضى أوقاته عند الجيران او فى المحلات العمومية وعليها ـ وهو أول الواجباب واهمها ـ تربية الاولاد جسماً وعقلا وأدباً

وظاهر أن تطبيق هـذه الواجبات التى ذكرتها بالاجمال على العيشة الجارية بالتفصيل يستدعى عقلا واسعاً ومعلومات متنوعة وذوقاً سليماً : لا يتأتى وجود ذلك فى المرأة الجاهلة وخصوصاً مايتعلق منها بتربية الاطفال

بالغنا فى نسيان ان الاولاد هم صناعة الوالدين وان الامهات لهن النصيب الأوفر فى هـذه الصناعة . بالغنا فى اعتقاد ان الله يخرج الفاسد من الصالح ويخرج الصالح من الفاسد . وانه يوزع العقول ويهب الصفات كما يشاء . وهو اعتقاد صحيح اذا أخذ عن جهة أن

الله قادر على كل شيء ومن تناول قدرته ان يفعل مثل ذلك . فان كان المقصود أن الله يمكنه ان يفعل مثل هـذا فلاشك فى قدرته سبحانه وتعالى . وليس من منازع فى أنه لوشاء فعل ذلك . كما انه لوشاء لجعل الناس أمة واحدة ولانبت الحيوان من الارض . لكن الله وضع للعالم سـنة وللحياة نظاماً وللمخلوقات نواميس تجرى عليها احكامها :

« فطرة الله التى فطر الناس عليها . لاتبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم » وتاريخ الانسانية من عهد وجودها على الارض الى الآن أيدثبات هذه السنن واستمرارها

من أكبر مظاهر حكمته جل شأنه هذه الحقيقة التى كشفها لنـا العلم وهى أن كل فرد من الأنواع الحيـة ـــ وفيها النوع الانسانى ـــ ليس الانسجة مطابقة للاصـل المتولد منـه . ففيه صورة نوعه الـكلى وفيه صورة والديه خصوصاً . بمعنى ان هـذا الفرد يحتـوى أولا على الخواص المميزة لنوعـه وعلى الصفات الخاصة بأبويه

ودلت الاكتشافات الحديثة ايضاً على أن كل الملكات العقلية والادبية فى الانسان انما هى مظاهر من وظائف المخ كما أن الصفراء من عمل وظيفة الـكبد . ومايسمى عقلا أوعاطفة فلاعمل له الاعمل

تلك الوظائف وعملها تابع لحالة الاعصاب والمخ . وانما مادة تلك الاعضاء منتزعة من الاصل الذى تولدت منه فلاريب أن يكون لها تبعية عظمى لذلك الاصل . ثم من الظاهر أن الجسم لايستغنى فى نموه وبقائه بما دخل فيه من تلك المادة الاولى بل لابد فى النمو والبقاء من التربية والغذاء . فكذلك حال العقل والملكات لايستغنى بما أودعته المدارك والقوى من الاستعداد الاول بل لابد فى ظهور أثرها وسيرها فيما أعدت له من الغذاء الذى يوافقها والتربية التى تلائمها فالوراثة والتربية هما الاصلان اللذان ترجع اليهما شخصية الطفل ذكراً كان اوأنثى وليس هناك شىء من وراء ذلك

فبالوراثة يكسب الطفل استعداداً لكل ميل كان عليه الوالدان صالحاً كان أو فاسداً ويرتكز فيه ذلك الاستعداد وهو فى بطن امه فصفات الطفل مرتبطة بما كان عليه أسلافه من جهة الاب . وبالتربية يمتلىء ذهن الطفل بالصور الواردة عليه من الاحساس وبأثرها فى نفسه ألماً كان اولذة وتعرض حسه لقبول هذه الصور موكول الى ادارة مربيه . فهو الذى يريه ويسمعه ويذيقه ويفيده كل معلوم . وهو الذى يعرض على وجدانه من العواطف مايراه لائقاً به . فان لم يرد عليه من صور المحسوسات الاماهو قليل غير متبوع بما ينشأ عنه من العواقب البعيدة . أولم يشعر من العواطف

الا بما يظهر أثره فى أقرب الاشياء من لذته الجسمانية كان سريع الاندفاع مع أول خاطر يبدوله كما يفعل الطفل والمتوحش والمجنون وان كانت معلوماته كثيرة تحتوى على صور الاشياء وصور ما يحدث عنها لاول التصور وما ينشأ عنها فيما بعد ذلك وكان وجدانه رقيقاً لطيفاً كان الناشىء كثير التأمل شديد التبصر بطىء الاندفاع مع أول انفعال يتأثر به من الحس والشعور . فينشأ وبيده ميزان يزن به أعماله ويقدر به حركاته ويشاهد فيه وهو فى صباه الميل الى النافع والنفرة من الضار

لانقول ان الطفل يكون فى ذلك كما يكون الرجل البالغ الرشيد . ولكنها أوائل وجراثيم من الكمال العقلى والادبى تصل بالتنمية والتربية الى تلك الغايات الشريفة التى يسعى اليها كل من عرف معنى الانسانية وذاق لذة الفضيلة . فسلامة العقل لاتتم إلا بحسن الوراثة وحسن التربية وهذا ماجعل العلماء ينسبون اليوم كل فساد فى الاخلاق الى مرض فى المخ أو فى الاعصاب موروث أو مكتسب . وان شوهد أن الولد لايشابه أبويه فى بعض الاحوال فذلك انما لان قانون الوراثة قد يرجعه الى حد اسلافه القريبين

متى حسنت التربية على الوجه الذى ذكرناه ضعف الاستعداد الذى كسبه الطفل من والديه ان كان رديئاً وتاصل فيه استعداد جديد

يرثه عنه من يتولد منه ويقوى فيه ذلك الاستعداد الا كان حسناً فيبلغ غاية مايرجى الانسان فاضل من أبوين فاضلين ويظهر أثر ذلك أيضاً فى أولاده وأعقابه ان استمر نظام التربية فيهم على الوجه الذى صار به هذا الوالد رجلا صالحاً . اما أن كانت التربية فاسدة وكل مايرد على الطفل انما يثير فيه أهواء باطلة فالاستعداد الخبيث يقوى والاستعداد الطيب يضمحل ويموت ويجنى على أولاده تلك الجناية التى جناها عليه والده

قال الغزالى فى التربية عبارة جميلة مختصرة اشتهيت ان أوردها هنا وهى : الصبى امانة عند والديه. وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة وهو قابل لكل ماينقش . ومائل الى كل مايمال اليه به . فان عود الخير علمه وعلمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة وشاركه فى ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب. وان عود الشر وأهمل اهمال البهائم شقى وهلك وكان الوزر فى رقبة القيم عليه الوالى له . وقد قال الله عز وجل . « ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً »

والتربية تنحصر فى أمر واحد هو تعويد الطفل على حسن الفعل وتحلية نفسه بجميل الخصال . والوسيلة الى ذلك واحدة هى ان يشاهد الطفل آثار هذه الاخلاق حوله. لان التقليد فى غريزة الطفل

يكتسب به كل ماتلزم معرفته . فان كانت الأم جاهلة تركت ولدها لنفسه يفعل مايزينه له عقله الصغير وشهواته الكبيرة ويرى من الاعمال مالاينطبق على محاسن الأدب فيتخلق بالاخلاق الفاسدة ويعتاد العوائد الفاسدة

ويرى الاسوة السيئة فى بيته وفى الخارج وكلما تقدم فى السن رسخت فيه هذه الاخلاق وكبرت معه بكبره . فاذا وصل الى سن الرجولية رأى نفسه أوراً ه الناس رجلاً سيء التربية ولاسبيل له بعد ذلك الى اصلاح نفسه مهما كانت إرادته ومعارفه وعقله . وينذر جداً ان يوجد شخص يبتدىء بعد بلوغه سن الرجولية فى اصلاح مافسد من ملكاته ثم ينجح فى ذلك . اللهم الا الى حد محدود

ومن المعلوم ان الطفل لايعيش من طفوليته الى سن التميز الا بين النساء . فهو دائماً محاط بأمه واخوته وعماته وخالاته وخادماتهن وصواحباتهن ويرى أباه فى أوقات قليلة . فاذا كان هذا الوسط الذي ينشأ فيه طيباً كانت تربيته طيبة وان كان سيئاً ساءت تربيته . والام الجاهلة ليس فى استطاعتها ان تصبغ نفس ولدها بصبغة الصفات الجميلة لانها لاتعرفها . وغاية ماتستطيع هو أنها تدعه يلتقط الخلال الرديئة بمايعرض له إن لم تبذر بيدها حبوبها فى نفسه وتغرس فيها الملكات السيئة

أليس من جهل الأم بقوانين الصحة أن تهمل ولدها من النظافة فيعلوها الوسخ وتتركه متشرداً فى الطريق والأزقة يتمرغ فى الاتربة كما تتمرغ صغار الحيوانات ؟ أليس من جهلها أن تدعه كسلان يفر من العمل ويضيع وقته الذى هو رأس ماله مضطجعا أو نائما أو لاهياً مع أن سن الطفولية لا يعرف الكسل وهو سن النشاط والعمل والحركة ؟ أليس من أثر جهلها اننا جميعاً مصابون بشلل فى أعصابنا حتى صرنا لا نتأثر من شىء مهما بلغ فى الحسن والقبح . فاذا رأينا عملا جميلا مدحناه من طرف اللسان . واذا شاهدنا فعلا قبيحاً استهجناه بهز الرؤوس وظاهر من القول بدون أن نشعر بانبعاث باطنى يقهرنا على الاندفاع الى الاول ولا على الابتعاد عن الثانى ؟ أليس من جهلها أن تسلك فى تأديب ولدها طريق الاخافة بالجن والعفاريت . وأن تأخذ من وسائل صيانته ووقايته من المضرات تعليق التعاويذ والطواف به حول القبور وفى زوايا الاضرحة وغير ذلك مما لا يبالى به الجاهلون بأصول الدين وفضائل الاعمال وله من الاثر السىء فى أنفس الناشئين بل وفى أرواح الرجال مايجر الى كل شر ويبعد عن كل خير ؟

وقد صار من المقرر عندنا أن الامهات لا يفلحن فى تربية الأولاد حتى صار من المثل فى الحطة ورداءة السير أن يقال فلان

تربية امرأة - على اننا نرى ان تربية المرأة فى البلاد الغربية تفوق تربية الرجال . وان أحسن الناس تربية هم من ساعدهم الدهر فى أن تتولى تربيتهم امرأة . وليس هذا بغريب فان المرأة تمتاز على الرجل بغرائز طبيعية هى بها أقوى استعداداً للنجاح فى التربية . ذلك انها أصبر من الرجل فيما تحب . وانها ألطف منه فى المعاملة وأرق منه فى العواطف والاحساسات . ويفتخر الغربيون بتأثير النساء فى أحوالهم حتى بعد بلوغ رشدهم . فقد قرأت فى أحد كتب رونان الفيلسوف الشهير ما محصله : «ان اجمل ماوضعه مؤلفاته كان الهاماً من اخته » وقال الفونس دوديه الكاتب المجيد فى بعض ما كتبه: « ان كنت استحق فخراً فلامرأتى نصفه وامثال هذه الشواهد كثيرة يعلمها كل من اطلع على احوال الأوروباويين .وكلها تدل على ان تربية المرأة أمر لا يستغنى عنه . وان القسم الأعظم منها منوط بالمراة

وقد نجد فى هدى نبينا صلى الله عليه وسلم مايشير الى ذلك . بل كان يجب ان يعد اصلا من الاصول التى نركن اليها فى بناء امورنا الملية حيث قال فى شأن عائشة رضى الله عنها : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » : وعائشة امراة لم تؤيد بوحى ولا بمعجزة وانما سمعت فوعت وعامت فتعامت

اود ان كل مصرى يرى ان مسئلة التربية عندنا هى ام سائر المسائل وان كل مسئلة غيرها مهما كانت اهميتها داخله فيها

عرف المصريون بعوائد واخلاق استفادوها من حوادث تاريخية ليس هذا محل ذكرها . تلك العوائد والاخلاق ليست معروفة فى الدين ولا هى موافقة لما يستحسنه العقلاء حتى من المصريين أنفسهم وقل ما يشاهد مثلها عند غيرهم

وقد آن الوقت على ما أظن لتربية نفوسنا تربية صحيحة متينة علمية . تربية تنشىء رجالا أولى علم وأصالة رأى يجمعون بين المعارف والاخلاق والعلم والعمل . تنقذنا من جميع العيوب التى يقذفنا بها الاجنبى فى كل يوم وبكل لسان كلها ترجع مهما اختلفت فى الاسم الى سبب واحد وهو النقص فى تربية نفوسنا . وقد اتفق جميع أهل النظر فى مصر على ان التربية هى الدواء الوحيد لذلك الداء . وانتشر هذا الرأى الصائب فى الكتب والجرائد وأحاديث المجالس حتى صح ان يقال أنه اصح رأياً عاماً . وتولد عن ذلك شعور بان مستقبل الامة تابع لتربيتها

ولكن أرى هم الناس موجهة الى التعليم ولا أرى أحداً يلتفت الى تربية النفوس . وأرى أن الحرص على التعليم منحصر فى تعليم الذكور . مع أن تهذيب الاخلاق مقدم على التعليم وتعليم

البنات مقدم على تعليم الذكور

ولست ممن يطلب المساواة بين المرأة والرجل فى التعليم فذلك غير ضرورى . وانما أطلب الآن ولا أتردد فى الطلب ان توجد هذه المساواة فى التعليم الابتدائى على الاقل . وان يعتنى بتعليمهن الى هذا الحد مثل مايعتنى بتعليم البنين

أما مايتعلمه بعض البنات الآن فاراه غير كاف . لانهن يتعلمن القراءة والكتابة بالعربية وبلغة أجنبية وشيئاً من الخياطة والتطريز والموسيقى ولا يتعلمن من العلوم مايستفدن منه فائدة يلتفت اليها . وربما زادتهن تلك المعارف غروراً بأنفسهن فتظن الواحدة منهن انها متى عرفت ان تقول نهارك سعيد باللغة الفرنساوية فقد فاقت أترابها وارتفع شأنها وسما عقلها . ولا تتنازل بعد ذلك لان تشتغل بعمل من الاعمال المنزلية . فتقضى حياتها فى تلاوة أقاصيص وحكايات قل ماتفيد الا فى اثارة صور من الخيالات تطوف بها وتتمثل لها عالماً لطيفاً تسرح فيه طرفها وهى شاخصة الى دخان السيجارة التى تقبض عليها

أكثر ماتعرفه المرأة التى يقال الآن انها متعلمة هو القراءة والكتابة وهذه واسطة من وسائط التعليم وليست غاية ينتهى اليها . ومابقى من معارفها فهى قشور تجمعها الحافظة فى ريعان العمر

ثم تنقلت منها واحدة بعد واحدة حتى لايبقى شيء . أين هذه القشور من الحقائق العلمية التى يتغذى منها العقل ويتقوى بها على مطاردة الوهم ! لاشيء ينفع الانسان مثل اكتسابه مايسمى عقلا عملياً . أريد بذلك مايقابل التخيل الذى يعيش به صاحبه فى أوهام وهواجس لاترجع الى حق ثابت . فان كل مصائب الانسان تأتى له من باب واحد وهو الخيال : كلما تجرد الانسان عن الأوهام والخيالات قرب من السعادة ويبعد عنها بقدر مايبعد عن الحقيقة

الحقيقة هى ضالة الانسان فى العالم ويجب عليه أن يسعى وراءها بلاقصور ولاتعب . الحقيقة هى الكنز الذى أودع الله فيه كل آمال الانسان لايجدها الامن رغب فيها ومال عن سواها . الحقيقة هى مشرق السعادة لانها الوسيلة وحدها لوصول الانسان الى كمال العقل والنفس. والنساء مثل الرجال فى الحاجة الى معرفة الحقيقة والى اكتساب عقل يحكم على نفوسهن ويرشدهن فى الحياة الى الاعمال الطيبة النافعة

أنظر الى الطفل تجده يشتهى وينفر ويحب ويكره ويفرح ويحزن ويضحك ويبكى ويسكن ويغضب وهو فى كل ذلك انما ينفعل بحس وبنبعث بوهم وينقاد الى خيال . واذا أراد شيئاً فمنع

عنه لم يستعمل للوصول الى غرضه الا شيئاً من الغش والمكر والكذب .
لم ذلك؟ لان عقله ضعف ومعارفه قليلة. ولم تصل قواه العقلية الى درجة تتمكن فيها من القياس والموازنة بين الاعمال والرغائب والآلام حتى تحمله على الصبر أحياناً وطلب المرغوب من أبوابه ووسائله الصحيحة أحياناً أخرى : والمرأة الجاهلة مثلها مثل الطفل . فيما ذكرنا سلب الرجال ثقتهم من النساء واعتقدوا أنهم أعوان ابليس . فلا تسمع الا زماً لخصالهن وتنقيصاً لعقلهن وتحذيراً من مكرهن . وانا لأبرىء النساء الان من هذه الصفات . ولكن أرى ان التبعة ليس عليهن بل على الرجل

هل صنعنا شيئاً لتحسين حال المرأة ؟ هل قمنا بما فرضه علينا العقل والشرع من تربية نفسها وتهذيب أخلاقها وتثقيف عقلها، أيجوز أن نترك نساءنا فى جالة لا تمتاز عن حالة الانعام أيصح أن يعيش النصف من أمتنا فى ظلمات من الجهل بعضها فوق بعض لا يعرفن فيها شيئاً مما يمر حولهن كما فى الكتاب صم بكم عمى فهم لا يعقلون ! أليس بينهن أمهاتنا وبناتنا واخواتنا وزوجاتنا . وهن زينة حياتنا الدنيا والجزؤ الذى لا يمكن فصله منا دمنا من دمهن ولحمنا من لحمهن ! أليس الرجال من النساء ، والنساء من الرجال وهن نحن ونحن هن ! أيتم كمال الرجل اذا كانت المراة ناقصة !

وهل يسعد الرجال الا بالنساء !

نحن حرمنا أنفسنا من أكبر لذة فى الدنيا وهى التمتع بمحبة ذوى القربى من النساء

كل منا يذوق حلاوة الساعات التى تمر به بدون ان يشعر بها حينما يطول الحديث بينه وبين صديق له وتختلط أنفسنا بعضها ببعض حتى يذهل كل عن أيهما يتكلم وأيهما يسمع . فهذا السرور يتضاعف بلاشك اذا وجد هذا التوفيق بين رجل وأمه أو أخته أو زوجته . ولكن يحول الآن بيننا وبينهن عدم التوافق بين عقولنا وعقولهن ونفوسنا ونفوسهن ولهذا فاننا نشفق عليهن ونحن اليهن ونعذرهن . ولكن لا تكمل محبتنا لهن لان الحب التام هو ذلك التوافق . وهو معدوم

والانسان محتاج الى أن يكون محباً وأن يكون محبوباً ومن فضل الله عليه ان وضع بجانبه أمهات وزوجات وغرس فى قلوبهن محبته وفى قلبه محبتهن وهذه اكبر نعمة من الله علينا بها لان هذه المحبة النقية الطاهرة الكاملة اذا صرفت فيما وضعت له كانت المسلية لنا فى سجن الحياة وهونت علينا الآلام والمصائب التى لولا هذه التسلية لأفضت فى بعض الاوقات بأقوى رجل منا الى اليأس . فعدم تقديرها قدرها وانصراف العناية عن تنميتها وتكميلها كفران بنعم الله وتقصير فى شكره

بقي علينا ان ندفع اعتراضاً لايمكننا السكوت عنه لانه فى الحقيقة هو المانع الوحيد الذى اتفقت أغلب العقول على وضعه حاجزاً يحول بين المرأة والتعليم : وهو الخوف من أن التعليم يفسد أخلاقها

رسخ فى اذهان الرجال أن تعليم المرأة وعفتها لايجتمعان وقال الأقدمون فى ذلك أقوالا طويلة وحكايات غريبة ونوادر سخيفة استدلوا بها على نقصان عقل المرأة واستعدادها للغش والحيلة . فلو تعلمت لم يزدها التعليم الا براعة فى الاحتيال والخدعة واسترسالا مع الشهوة . فخذونا مثالهم واعتقدنا ان التعليم يزيد تفننها فى المكر ويعطيها سلاحا جديداً تتقوى به طبيعتها الخبيثة على ارتكاب المفاسد

أما ان المرأة الآن ناقصة العقل شديدة الحيلة فهذا مما لايختلف فيه اثنان وقد بينا ان هذه الحالة هى اثر من آثار الجهل والانحطاط اللذين عاشت فيهما أجيالا طويلة . وانه متى زال السبب فلاشك ان المسبب يتبعه . واما كون التعليم يفسد أخلاقها فهذا ننكره ونشدد النكير عليه فان التعليم - خصوصاً اذا كان مصحوباً بتهذيب الأخلاق - يرفع المرأة ويرد اليها مرتبتها واعتبارها ويكمل عقلها ويسمح لها ان تفتكر وتتأمل وتتبصر فى أعمالها . وان وقع ان امرأة تعرف القراءة والكتابة حادت عن الطريق المستقيم وخاطبت حبيبها بالرسائل الغرامية فقد وقع أن الوفا من النساء الجاهلات

دنسن عروضهن وكان الرسول بينهن وبين رفيقهن خادم أوخادمة أودلالة اوجارة عجوز

والحقيقة ان طهارة القلب فى الغرائز والطباع .فان كانت المرأة صالحة زادها علمها صلاحاً وتقوى . وان كانت فاجرة لم يزدها العلم فجوراً . وهكذا الحال فى الرجال . وضلال فريق من الناس بضرب من ضروب التعليم لايمنع من تعاطيه . فقد قال الله فى شأن كتابه : « يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ومايضل به الا الفاسقين »

فأثر التعليم لايمكن أن يكون ضرراً محضاً . ولا يمكن أن يكون منشئاً حقيقياً لضرر . والمرأة المتعلمة تخشى عواقب الامور أكثر مما تخشاه الجاهلة ولا تقدر بسهولة على مايضر بحسن سمعتها بخلاف الجاهلة فان من أخلاقها الطيش والخفة . واذكر ملاحظة واحدة تؤيد ماقدمته وهو أن نساء الافرنج على العموم مهما كان حالهن فى الباطن يحافظن على الظواهر فيعيش الواحد بين رجل وامرأة يحب بعضهما بعضاً اياما واشهراً ولا يكاد تقع منهما هفوة تظهر ما كان خافيا بينهما وتراهن فى الطريق سائرات مرتديات بجلاليب الجد والسكينة والوقار يغضضهن ابصارهن عن الرجال وان نظرن اليهم فمن طرف خفى . اما نساؤنا العفيفات فيغلب فيهن ان يكون باطنهن خيراً من ظاهرهن ومتى رأت الواحدة منهن رجلا

نظرت اليه وتأملته والتفت نحوه ولوت عنقها اليه ولاشعور لها بأن مثل هذه الحركات التى تصدر منها من غير تمييز تخل بشأنها وتحط من قيمتها واعتبارها . أما الفريق الآخر من النساء فى بلادنا ممن طرحن العفة وجرين مع الشهوة فلا نسل عما يصدر منهن فى الطرق والمجتمعات العامة من الامور المخلة بالآداب التى يستحى القلم عن أن يجرى برسمها : هذا الفريق من الاحانب يصعب تمييزه عن الحرائر الا ببعض امور يعرفها أهل الخلاعة

ثم ان البطالة التى ألفتها نفوس النساء عندنا وصارت كأنها من لوازم حياتها هى أم الرذائل . ان كان نساؤنا لا يعلمن شيئاً فى المنازل ولا يحترفن بصنعة ولا يعرفن فناً ولا يشتغلن بعلم ولا يقرأن كتابا ولا يعبدن الله فبماذا يشتغلن حينئذ ، أقول لك وأنت تعلم مثلى ان ما يشغل امرأة الغنى والفقير والعالم والجاهل والسيد والخادم هو أمر واحد يتفرع الى مالا نهاية له ويتشكل فى كل آن بشكل جديد وهو ينبوع رضاها أو سخطها على حسب الاحوال . ذلك الامر هو علاقتها مع زوجها . فتارة تتخيل انه يكهرها . وتارة تظن انه يحبها وحيانا تقارنه بازواج جاراتها فيخرج من هذا الامتحان الصعب كاسبا أو خاسراً وأحياناً تجرب ميله لتعلم هل تغير أو هو باق . وأحياناً تدبر طريقة لتغيير قلبه على ذوى قرابته لتنزع منه محبتهم ان كان ودوداً

لهم ولا تغفل عن مراقبة سلوكه مع الخادمات وتراقب لحظاته عند دخول الزائرات وتجعله دائماً موضوع الشك : ومن وسائل الاحتياط أن لا تقبل الخادمه الا اذا كانت من شناعة الصورة وقبح المنظر وبشاعة الهيئة بحيث يطمئن قلبها وتأمن ميل زوجها اليها ولا تستريح من هذا الشاغل الا اذا أفرغته فى أذن أخرى من أمثالها فاذا فرغت من تصويره فى العبارات رجعت الى تمثيله فى الخيالات وهكذا . ولهذا ترى اذا اجتمعت مع جارتها وصواحباتها تصاعدت مع دخان السجاير وبخار القهوة زفراتها وارتفع صوتها فنقص ما بينها وبين زوجها وأقارب زوجها وأصحاب زوجها وحزنها وفرحها وهمها وسرورها وتفرغ كل ما فى صدرها حتى لا يبقى سر من أسرارها — ولو كان متعلقا بالفراش — الا وقد اخبرت به

هذا اذا كانت المرأة محبة لزوجها . أما اذا كانت لا تميل لزوجها أو كانت غير متزوجة فأكرر سؤالى بماذا تشتغل حينئذ أما الأولى فانها تفتكر فى طريقة للخلاص من زوجها والبحث عن سواه . أما الثانية فأعظم همها أن تشتغل كذلك بالبحث عن زوج أيا كان ولا تضيع وقتها فى حسن انتقاء الرجل الذى يصح أن يكون لها زوجا فانها انما تطلب رجلا . ومن البديهى أن المرأة التى يكون هذا حالها ان كانت فاسدة الاخلاق ووجدت فرصة لا تتأخر عن

انتهازها ولا تكلف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذى تريد أن تقدم له أفضل شىء لديها وهو نفسها

وعلى خلاف ذلك يكون أمر النساء المتعلمات . اذا جرى القدر عليهن بأمر مما لايحل لهن لم يكن ذلك الا بعد محبة شديدة يسبقها علم تاج باحوال المحبوب وشمائله وصفاته فتختاره من بين مئات وألوف ممن تراهم فى كل وقت وهى تحاذر أن تضع ثقتها فى شخص لايكون أهلا لها ولاتسلم نفسها الا بعد مناضلة يختلف زمنها وقوة الدفاع فيها على حسب الأمزجة . وهى فى كل حال تستتر بظاهر من التعنف وتخفى مافى نفسها عن أخص الناس بها

والمعول فى كل ذلك هو كما ذكرته فيما مضى على الاخلاق التى نشأت عليها المرأة فى تربيتها الابتدائية . فان اعتادت على أن تشغل أوقاتها بالمطالعة ومزاولة الاعمال المنزلية بين أهل وعشيرة رأت فيهم أسوة الجد والاستقامة وغاب من بينهم كل مايؤثر فى مشاعرها أثراً غير صالح أو يهيج حسها الى أمر غير لائق وتعودت عل أن تقيم من عقلها حاكما على قواها الحسية كان من النادر أن تحيد عن الطريق المستقيم وأن تلقى بنفسها فى غمرات الشهوات التى لاتسلم مهما كانت من الخطر والعذاب والندم

وبالجملة فانا نرى أن تربية العقل والاخلاق تصون المرأة ولا يصونها الجهل . بل هى الوسيلة العظمى لان يكون فى الامة نساء يعرفن قيمة الشرف وطرق المحافظة عليه . وأرى أن من يعتمد على جهل امرأته مثله كمثل أعمى يقود أعمى مصيرهما أن يقعا فى أول حفرة تصادفهما فى الطريق

﴿ حجاب النساء ﴾

سبق لى البحث فى الحجاب بوجه اجمالى فى كتاب نشرته باللغة الفرنساوية من أربعين سنة مضت رداً على الدوك داركور وبينت هناك أهم المزايا التى سمح لى المقام بذكرها ولكن لم أتكلم فيما هو الحجاب ولا فى الحد الذى يجب أن يكون عليه وهنا أقصد أن أتكلم فى ذلك

ربما يتوهم ناظر أننى أرى الآن رفع الحجاب بالمرة . لكن الحقيقة غير ذلك . فاننى لا أزال أدافع عن الحجاب وأعتبره أصلا من أصول الآداب التى يلزم التمسك بها . غير أنى أطلب أن يكون منطبقاً على ماجاء فى الشريعة الاسلامية . وهو على مافى تلك الشريعة يخالف ماتعارفه الناس عندنا لما عرض عليهم من حب المغالاة فى الاحتياط والمبالغة فيما يظنونه عملا بالاحكام حتى تجاوزوا حدود الشريعة وأضروا بمنافع الأمة

والذى أراه فى هذا الموضوع هو أن الغربيين قد غلوا فى اباحة التكشف للنساء الى درجة يصعب معها ان تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة ولا ترضاه عاطفة الحياء . وقد تغالينا نحن فى طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجل حتى صيرنا المرأة أداة من الادوات أو متاعاً من المقتنيات وحرمانها من كل المزايا العقليه والادبية التى أعدت لها بمقتضى الفطرة الانسانية . وبين هذين الطرفين وسط سنبينه ـ هو الحجاب الشرعى ـ وهو الذى أدعو اليه

انى أشعر أن القارىء الذى سار معى الى هذه النقطة وتبعنى فيما دعوته اليه من وجوب تربية النساء ربما يستجمع قواه لمقاومتى فيما أطلب من الرجوع بالحجاب الى الحد الشرعى ويستنجد جميع الأوهام التى خزنها فى ذهنه أجيالا طويلة ليدافع عن العادة الراسخة الآن . ولكن مهما استجمع من قوة الدفاع عنها ومهما بذل من الجهد للمحافظة عليها فلا سبيل الى أن تبقى زمناً طويلا

ماذا تفيد الشجاعة والثبات فى المحافظة على بناء آل أمره الى الخراب والتهدم وقد انقض أساسه وانحلت مواده ووصل حاله من الاضمحلال الى أنك ترى فى كل سنة تمر جزاً منه ينهار من نفسه؟ أليس هذا كله صحيحاً ؟ أليس حقاً أن الحجاب فى هذه السنين

الاخيرة ليس كما كان من عشرين سنة؟ أليس من المشاهد أن النساء فى كثير من العائلات يخرجن لقضاء حاجاتهن ويتعاملن بانفسهن مع الرجال فيما يتعلق بشؤونهن ويطلبن ترويح النفس حيث يصفو الجو ويطيب الهواء ويصحبن أزواجهن فى أسفارهم وترى أن هذا التغير حدث فى عائلات كانت أشد الطبقات تحرجاً من ظهور النساء؟ اذا قارنا بين مانشاهد اليوم وبين ما كان عليه النساء من عهد ليس بالبعيد عنا حيث كان يشين المرأة أن تخرج من بيت زوجها. وأن يرى طولها أجنبي وكان اذا عرض للمرأة سفر اتخذ كل احتياط ليكون سفرها ليلا حتى لايراها أحد من الناس. وحيث كانت أم الرجل أو أخته أو بنته تستحى أن تجلس معه على مائدة واحدة ـ اذا قارنا بين هذا وذاك نجد بلا شك ان هذه العادة آخذة فى الزوال من نفسها

وكل من عرف التاريخ يعلم أن الحجاب دور من الأدوار التاريخية لحياة المرأة فى العالم. قال لاروس تحت كلمة خمار: «كانت نساء اليونان يستعملن الخمار اذا خرجن ويخفين وجوههن بطرف منه كما هو الآن عند الامم الشرقية». وقال: ترك الدين المسيحى للنساء خمارهن وحافظ عليه عند مادخل فى البلاد فكن يغطين رؤسهن اذا خرجن فى الطريق وفى وقت الصلاة. وكانت النساء

تستعملن الخمار فى القرون الوسطى خصوصاً فى القرن التاسع . فكان الخمار يحيط باكتاف المرأة ويجر على الارض تقريباً . واستمر كذلك الى القرن الثالث عشر حيث صارت النساء تخفف منه الى أن صار كما هو الآن نسيجاً خفيفاً يستعمل لحماية الوجه من التراب والبرد . ولكن بقى بعد ذلك بزمن فى أسبانيا وفى بلاد أمريكا التى كانت تابعة لها »

ومن هذا يرى القارىء أن الحجاب الموجود عندنا ليس خاصاً بنا ولا أن المسلمين هم الذين استحدثوه . ولكنه كان عادة معروفة عند كل الأمم تقريباً ثم تلاشت طوعاً لمقتضيات الاجتماع وجرياً على سنة التقدم والترقى . وهذه المسألة المهمة يلزم البحث فيها من جهتها الدينية والاجتماعية :

١ ـ ﴿ الجهة الدينية ﴾

لو أن فى الشريعة الاسلامية نصوصاً تقضى بالحجاب على ماهو معروف الآن عند بعض المسلمين لوجب على اجتناب البحث فيه ولما كتبت حرفاً يخالف تلك النصوص مهما كانت مضرة فى ظاهر الامر لأن الأوامر الالهية يجب الاذعان لها بدون بحث ولا مناقشة لكننا لانجد نصاً فى الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة وانما هى عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم

فاستحسنوها وأخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين كسائر العادات الضارة التى تمكنت فى الناس باسم الدين والدين براء منها. ولذلك لانرى مانعاً من البحث فيها بل نرى من الواجب أن نلم بها ونبين حكم الشريعة فى شأنها وحاجة الناس الى تغييرها جاء فى الكتاب العزيز :

« قل للمؤمنين يغضوا ممن أبصارهم ويحفظوا فروجهم . ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون . وللمؤمنات يغضضن من من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولايبدين زينتهن الاماظهر منها . وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولايبدين زينتهن الالبعولتهن أو آبائهن أوآباء بعولتهن أوأبنائهن أوأبناء بعولتهن أوأخوانهن أوبنى اخوانهن أوبنى أخوانهن أونسائهن أوماملكت أيمانهن أوالتابعين غير أولى الأربة من الرجال أوالطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولايضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن »

أباحت الشريعة فى هذه الآية للمرأة أن تظهر بعض أعضاء من جسمها أمام الاجنبى عنها غير أنها لم تسم تلك المواضع وقدقال العلماء انها وكلت فهمها وتعيينها الى ما كان معروفاً فى العادة وقت الخطاب . واتفق الأئمة على ان الوجه والكفين مماشمله الاستثناء فى الآية ووقع الخلاف بينهم فى أعضاء أخرى كالزراعين والقدمين

جاء فى بن عابدين : « وعورة الحرة بدنها حتى شعرها النازل جميع فى الأصح خلا الوجه والكفين والقدمين على المعتمد . وصوتها على الراجح وزراعيها على المرجوح وتمنع المرأة الشابة من كشف الوجه (لا لأنه عورة) بل لخوف الفتنة كمسه وان أمن الشهوة لانه أغلظ ولذلك ثبتت به حرمة المصاهرة كما يأتى فى الحظر ولا يجوز النظر اليه بشهوة كوجه أمرد . فانه يحرم النظر الى وجهها ووجه الامرد اذا شك فى الشهوة . أما بدونها فيباح ولو جميلا »[1]

وذكر فى كتاب الروض فى المذهب الشافعى : « نظر الوجه والكفين عند أمن الفتنة من المرأة للرجل وعكسه جائز ويجوز نظر وجه المرأة عند المعاملة وعند تحمل الشهادة وتكلف كشفه عند الاداء »*[2]

وجاء فى تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق لعثمان بن على الزيلعى : « وبدن الحرة عورة الا وجهها وكفها وقدميها لقوله تعالى « ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها » والمراد محل زينتهن وما ظهر منها الوجه والكفان . قاله بن عباس وبن عمر . واستثنى فى المختصر الاعضاء الثلاثة للابتلاء بأبدانها لانه عليه الصلاة والسلام نهى المحرمة عن لبس القفازين والنقاب . ولو كان الوجه والكفان من العورة لما حرم

(١) صحيفة ٣٣٦ جزء ١ (٢) ١٠٩ صحيفة و ١٠٤ جزء ٢

سترهما بالمخيط . وفى القدم روايتان والاصح أنهـا ليست بعورة للابتلاء بابدائها* [١]

وحكم الوجه والكفين وانها ليست بعورة معروف كذلك عند المالكية والحنابلة . ولانطيل الكلام بنقل نصوص أهل هذين المذهبين

ومما يروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : * ان أسماء بنت أبى بكر دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فقال لهـا ياأسماء ان المرأة اذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها الا هذا وهذا وأشار الى وجهه وكفيه * . وورد أيضاً فى كتاب حسن الاسوة للسيد محمد صديق حسن خان بهادر : * وانما رخص للمرأة فى هذا القدر لأن المرأة لاتجد بداً من مزاولة الاشياء بيديها ومن الحاجة الى كشف وجهها خصوصاً فى الشهادة والمحاكمة والزواج وتضطر الى المشى فى الطرقات وظهور قدميها وخاصة الفقيرات منهن * [٢]

خولت الشريعة للمرأة ماللرجال من الحقوق وألقت عليها تبعة أعمالها المدنية والجنائية فللمرأة الحق فى ادارة أموالها والتصرف فيها بنفسها . فكيف يمكن لرجل أن يتعاقد معها من غير أن يراها

---

(١) صحيفة ٦٩ جزء ٣ (٢) صحيفة ٢٩

ويتحقق شخصيتها؟

ومن غريب وسائل التحقق ان تحضر المرأة مغلفة من رأسها الى قدميها أو تقف من وراء ستار أو باب ويقال للرجال هاهى فلانة التى تريد أن تبيعك دارها أو تقيمك وكيلا فى زواجها مثلا. فتقول المرأة بعت أو وكلت ويكتفى بشهادة شاهدين من الأقارب أو الاجانب على أنها هى التى باعت أو وكلت والحال أنه ليس فى هذه الاعمال ضمانة يطمئن لها أحد. وكثيراً ما أظهرت الوقائع القضائية سهولة استعمال الغش والتزوير فى مثل هذه الأحوال فكم رأينا ان امرأة تزوجت بغير علمها وأجرت أملاكها بدون شعورها. بل تجردت من كل ما تملكه على جهل منها. وذلك كله ناشىء من تحجبها وقيام الرجال دونها يحولون بينها وبين من يعاملها

كيف يمكن لامرأة محجوبة ان تتخذ صناعة أو تجارة للتعيش منها ان كانت فقيرة؟ كيف يمكن لخادمة محجوبة أن تقوم بخدمة بمنزل فيها رجال، كيف يمكن لتاجرة محجوبة ان تدير تجارتها بين الرجال؟ كيف يتسنى لزراعة محجوبة أن تفلح أرضها وتحصد زرعها كيف يمكن لعاملة محجوبة أن تباشر عملها اذا أجرت نفسها للعمل فى بناء بيت أو نحوه،

وبالجملة فقد خلق الله هذا العالم ومكن فيه النوع الانسانى

ليتمتع من منافعه بما تسمح له قواه فى الوصول اليه . ووضع للتصرف فيه حدوداً تتبعها حقوق . وسوى فى التزام الحدود والتمتع بالحقوق بين الرجل والمرأة من هذا النوع . ولم يقسم الكون بينهما قسمة أفراز . ولم يجعل جانباً من الارض للنساء يتمتعن بالمنافع فيه وحدهن وجانباً للرجال يعملون فيه فى عزلة عن النساء . بل جعل متاع الحياة مشتركا بين الصنفين شائعا تحت سلطة قواهما بلا تمييز ـ فكيف يمكن مع هذا لامرأة أن تتمتع بما شاء الله أن يتمتع به مما هيأهاله بالحياة لواحقها من المشاعر والقوى وما عرضه عليها لتعمل فيه من الكون المشترك بينها وبين الرجال اذا حظر عليها أن تقع تحت أعين الرجال الا من كان من محارمها ؟ لاريب أن هذا مما لم يسمح به الشرع ولن يسمح به العقل . لهذا رأينا أن الضرورة أحالت الثبات على هذا الضرب من الحجاب عند أغلب الطبقات من المسلمين كما نشاهده فى الخادمات والعاملات وسكان القرى حتى من أهل الطبقة الوسطى بل وبعض أهل العلياء من أهل البادية والقرى : والكل مسلمون بل قد يكون الذين أمكن فيهم منه فى أهل المدن !

اذا وقفت المرأة فى بعض مواقف القضاء خصما أو شاهداً كيف أنه يسوغ لها ستر وجهها ؟ مضت سنون والخصوم وقضاة المحاكم أنفسهم غافلون عما يهم فى هذه المسئلة متساهلون فى رعاية

الواجب فيها . فهم يقبلون أن تحضر المرأة أمامهم مستترة الوجه وهى مدعية أو مدعى عليها أوشاهدة وذلك منهم استسلاماً للعوائد وليس بخاف مافى هذا التسامح من الضرر الذى يصعب استمراره فيما أظن . ذلك لعدم الثقة بمعرفة الشخص المستتر ولما فى ذلك من سهولة الغش . كل رجل يقف مع امرأة موقف المخاصمة من همه أن يعرف تلك التى تخاصمه وله فى ذلك فوائد كثيرة من أهمها صحة التمسك بقولها . ولا أظن إنه يسوغ للقاضى أن يحكم على شخص مستتر الوجه ولا أن يحكم له . ولا أظن أنه يسوغ له أن يسمع شاهداً كذلك . بل أقول أن أول واجب عليه أن يتعرف وجه الشاهد والخصم خصوصاً فى الجنايات . والا فأى معنى لما أوجبه الشرع والقانون من السؤال عن اسم الشخص وسنه وصناعته ومولده وماذا تفيد معرفة هذه الامور كلها اذا لم يكن معروفاً بشخصه

والحكمة فى أن الشريعة الغراء كلفت المرأة بكشف وجهها عند تأدية الشهادة كما مر ظاهرة . وهى تمكن القاضى من التفرس فى الحركات التى تظهر عليه فيقدر الشهادة بذلك قدرها

لاريب ان ماذكرنا من مضار التحجب يندرج فى حكمة أباحة الشرع الاسلامى لكشف المرأة وجهها وكفيها — ونحن لا نريد أكثر من ذلك

واتفق أئمة المذاهب أيضاً على أنه يجوز للخاطب أن ينظر الى المرأة التى يريد أن يتزوجها . بل قالوا بندبه عملا بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال لاحد الانصار : ـ وكان قد خطب امرأة ـ *أنظرت اليها* قال لا ـ قال : *أنظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما* هذه هى نصوص القرآن وروايات الاحاديث وأقوال أئمة الفقه كلها واضحة جلية فى أن الله تعالى قد أباح للمرأة كشف وجهها وكفيها وذلك للحكم التى لا يصعب ادراكها على كل من عقل

هذا حكم الشريعة الاسلامية كله يسر لاعسر فيه لاعلى النساء ولا على الرجال . ولا يضرب بين الفريقين بحجاب لايخفى مافيه من الحرج عليهما فى المعاملات والمشقة فى أداء كل منهما ما كلف به من الاعمال سواء كان تكليفاً شرعياً أو تكليفاً قضت به ضرورة المعاش

أما دعوى ان ذلك من آداب المرأة قلا أخالها صحيحة لانه لا أصل يمكن أن ترجع اليه هذه الدعوى . وأى علاقة بين الادب وبين كشف الوجه وستره ؟ وعلى أى قاعدة بنى الفرق بين الرجل والمرأة؟ أليس الادب فى الحقيقة واحداً بالنسبة للرجال والنساء وموضوعه الاعمال والمقاصد لا الاشكال والملابس ؟

وأما خوف الفتنة الذى نراه يطوف فى كل سطر مما يكتب فى هذه المسئلة تقريباً فهو أمر يتعلق بقلوب الخائفين من الرجال وليس

على النساء تقديره ولا هن مطالبات بمعرفة وعلى من يخاف الفتنة من الرجال أن يغض بصره كما أنه على من يخافها من النساء أن تغض بصرها . والاوامر الواردة فى الآية الكريمة موجهة الى كل من الفريقين بغض البصر على السواء . وفى هذا دلالة واضحة على أن المرأة ليست بأولى من الرجل بتغطية وجهها

عجباً ؟ لم تؤمر الرجال بالتبرقع وستر وجوههم عن النساء اذا خافوا الفتنة عليهن ؟ هل اعتبرت عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة واعتبر الرجل أعجز من المرأة عن ضبط نفسه والحكم على هواه واعتبرت المرأة أقوى منه فى كل ذلك حتى أبيح للرجال أن يكشفوا وجوههم لأعين النساء مهما كان لهم من الحسن والجمال . ومنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال منعاً مطلقاً خوف أن ينفلت زمام هوى النفس من سلطة عقل الرجل فيسقط فى الفتنة بأية امرأة تعرضت له مهما بلغت من قبح الصورة وبشاعة الخلق؟ إن زعم زاعم صحة هذا الاعتبار رأينا هذا اعترافاً منه بأن المرأة أكمل استعداداً من الرجل — فلم توضع حينئذ تحت رقه فى كل حال ؟ فان لم يكن هذا الاعتبار صحيحاً فلم هذا التحكم المعروف ؟

على أن البرقع والنقاب مما يزيد فى خوف الفتنة . لان هذا النقاب الابيض الرقيق الذى تبدو من ورائه المحاسن وتختفى من

خلفه للعيوب . والبرقع الذى يختفى تحته طرف الأنف والفم والشدقان ويظهر منه الجبين والحواجب والعيون والخدود والاصداغ وصفحات العنق ـ هذان الساتران يعدان فى الحقيقة من الزينة التى تحت رغبة الناظر وتحمله على اكتشاف قليل خفى بعد الافتتان بكثير ظهر . ولو أن المرأة كانت مكشوفة الوجه لكان فى مجموع خلقها ما يرد فى الغالب البصر عنها

ليست أسباب الفتنة ما يبدو من أعضاء المرأة الظاهرة . بل من أهم أسبابها ما يصدر عنها من الحركات فى أثناء مشيها وما يبدو من الافاعيل التى ترشد عما فى نفسها . والنقاب والبرقع من أشد أعوان المرأة على اظهار ما تظهر وعمل ما تعمل لتحريك الرغبة . لانهما يخفيان شخصيتها فلا تخاف أن يعرفها قريب أو بعيد فيقول فلانة أو بنت فلان أو زوجة فلان كانت تفعل كذا . فهى تأتى كل ما تشتهيه من ذلك تحت حماية ذاك البرقع وهذا النقاب . أما لو كان وجهها مكشوفا فان نسبتها الى عائلتها أو شرفها فى نفسها يشعرانها الحياء والخجل ويمنعانها من ابداء حركة أو عمل يتوهم منه أدنى رغبة منها فى استلفات النظر اليها

والحق أن الانتقاب والتبرقع ليسا من المشروعات الاسلامية لا للتعبد ولا للادب بل هما من العادات القديمة السابقة على الاسلام

والباقية بعده . ويدلنا على ذلك ان هـذه العادة ليست معروفة فى كثير من البلاد الاسلامية وانها لم تزل معروفة عند أغلب الأمم الشرقية التى لم تتدين بدين الاسلام .

انما من مشروعات الاسلام ضرب الخمر على الجيوب كما هو صريح الآية وليس فى ذلك شىء من التبرقع والانتقاب

هذا مايتعلق بكشف الوجه واليدين . أمامايتعلق بالحجاب بمعنى قصر المرأة فى بيتها والحظر عليها أن تخالط الرجال فالكلام فيه ينقسم الى قسمين . مايختص بنساء النبى صلى الله عليه وسلم . وما يتعلق بغيرهن من نساء المسلمين . ولا أثر فى الشريعة لغير هذين القسمين

اماالقسم الاول فقد ورد فيه مايأتى من الآيات :

« يايها اللذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى الاأن يؤذن لكم . واذاسألتموهن متاعا فسألوهن من وراء حجاب . ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن . وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا تنكحوا من بعده أبداً . ان ذلكم كان عند الله عظيماً »

« يانساء النبى لستن كأحد من النساء . ان أتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض . وقلن قولا معروفاً وقرن فى بيوتكن ولاتتبرجن تبرج الجاهلة الاولى »

ولا يوجد اختلاف فى جميع كتب الفقه من أى مذهب كانت ولا فى كتب التفاسير فى أن هذه النصوص الشريفة هى خاصة بنساء النبى صلى الله عليه وسلم . أمرهن الله سبحانه وتعالى بالتحجب وبين لنا سبب هذا الحكم وهو أنهن لسن كأحد من النساء . ولما كان الخطاب خاصا بنساء الرسول صلى الله عليه وسلم وكانت أسباب التنزيل خاصة بهن لا تنطبق على غيرهن فهذا الحجاب ليس بفرض ولا بواجب على أحد من نساء المسلمين [1]

وأما القسم الثانى فغاية ماورد فى كتاب الفقه عنه حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم نهى فيه عن الخلوة مع الأجنبى وهو : « لا يخلون رجل بامرأة الا مع ذى محرم » قال ابن عابدين . ,, الخلوة خربة أو كانت عجوزا شوهاء أو بحائل - وقيل الخلوة بالاجنبية مكروهة كراهة تحريم . وعن يوسف ليست بتحريم ،، [1]

وقالوا ان الخلوة المحرمة تنتفى بالحائل وبوجود محرم أو امرأة ثقة قادرة - وهل تنتفى أيضاً بوجود رجل آخر لم تراه ، [2]

ربما يقال ان مافرضه الله على نساء نبيه يستحب اتباعه لنساء المسلمين كافة - فنجيب أن قوله تعالى « لستن كأحد من النساء » يشير

---

(١) صحيفة ٢٦١ من كتاب حسن الاسوة

(١) صحيفة ٣٢٣ جزء خامس (٢) صحيفة ٤٢٣ جزء خامس

الى عدم الرغبة فى المساواة فى هذا الحكم وينبهنا الى أن فى عدم الحجاب حكماً ينبغى لنا اعتبارها واحترامها وليس من الصواب تعطيل تلك الحكم مرضاة لاتباع الأسوة . وكما يحسن التوسع فيما فيه تيسير أو تخفيف كذلك لايجعل الغلو فيهما تشديد وتضييق أو تعطيل لشئ من مصالح الحياة وعلى هذا وردت آيات الكتاب المبين . قال تعالى :،، يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ،، . وقال : ،، وما جعل عليكم فى الدين من حرج ،، . وقال أيضاً : ،، يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء ان تبدلكم تسؤكم ،، . ولو كان اتباع الأسوة مطلوباً فى مثل هذه الحالة لما رأينا أحد المشهورين بشدة التقوى والتمسك بالسنة يجرى فى عائلته على مايخالف الحجاب واستدل على ذلك بذكر الواقعة الآتية :

بعث سلمة بن قيس برجل من قومه يخبر عمر ابن الخطاب رضى الله عنه بواقعة حربية . فلما وصل ذلك الرجل الى بيت عمر قال : ،، فاستأذنت وسلمت فأذن لى فدخلت عليه فاذا هو جالس على مسح متكىء على وسادتين من ارم محشوتين ليفاً فنبذ الى بأحديهما فجلست عليها واذا بهو فى صفة فيها بيت عليه ستير فقال :،، يا أم كلثوم غداءنا فاخرجت اليه خبزة بزيت فى عرضها ماح لم يدق . فقال : ،، يا أم كلثوم ألا تخرجين الينا تأكلين معنا من هذا ؟ ،،

قالت : * انى أستمع عندك حس رجل * . قال : * نعم ولا أراه من اهل البلد * . قالت فذلك حين عرفت أنه لم يعرفنى ولكن لو أردت أن اخرج الى الرجال لكسوتنى كما كسى ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كساطاحة امرأته * ـ قال : * أومايكفيك ان يقال أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر،، ـ فقال كل فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا ،،[1] وفضلا عن كون الشرع لايوجب ذلك الحجاب فانه مجرد عن الفائدة بل فيه مضرات شتى نأتى على بيانها فى المبحث الآتى

٢ ـ الجهة الاجتماعية

انا نطلب تخفيف الحجاب ورده الى أحكام الشريعة الاسلامية الا لأننا نميل الى تقليد الامم الغربية فى جميع أطوارها وعوائدها لمجرد التقليد أو للتعلق بالجديد لانه جديد . فاننا نتمسك بعوائدنا الاسلامية ونحترمها ونرى أنها مزاج الأمة تتماسك به أعضاؤها ولسنا ممن ينظر اليها نظره الى الملابس يخلع ثوبا كل يوم ليلبس غيره وانما نطلب ذلك لاننا نعتقد أن لرد الحجاب الى أصله الشرعى مدخلا عظيما فى حياتها المعاشية . لسنا فى مقام استحسان أمر واستقباح آخر لما فيه من موافقة الذوق أو منافرته . وانما نحن بصدد ما به قوام

---

(١) صحيفة ٢٧١٦ تاريخ الطبرى جزء خامس

حياة المرأة أو مابه قوام حياتنا

كلامنا الآن فى هل يلزمنا أن نعيش ونحيى أو نقضى على أنفسنا بأن نموت ونفنى ؛ هل علينا أن نهتز مكاننا ونرضى بما وجدنا عليه آباءنا والناس من حولنا يتسابقون الى منابع السعادة وموارد الرفاهية ومعاهدة القهوة ويمرون علينا سراعاً ونحن شاخصون اليهم اما غير شاعرين بموقفنا واما شاعرين ولكنا حيارى ذاهلون أو من الواجب علينا أن ننظر كيف تقدم الناس وتأخرنا . كيف تقووا وضعفنا . كيف سعدوا وشقينا ثم نرجع أبصارنا كرة ثانية فى ديننا وما كان عليه اسلافنا الصالحون . ثم نقتدى بهم فى استماع القول واتباع أحسنه وانتقاد الفعل والأخذ بأفضله ونسير فى طرق السعادة والارتقاء والقوة مع السائرين ، ذلك هو الأمر الخطير الذى وجهنا اليه نظرنا

هاهى مسئلة الحجاب مسئله من أهم المسائل ولها مكان عظيم فى شؤون الأمة اذا ترك القارىء نفسه لعواطفه واستسلم الى عوائده ظهر له الحجاب فى مظهر حسن لانه ألفه فى صغره ونشأ بين المحجبات وعاش معهن حتى صار ذلك عادة مألوفة له . ثم أنه ورثه عن آبائه وأجداده فلا يستغربه بل يميل اليه ميلا غريزياً ليس للعقل فيه مدخل وانما هو حركة ميكانيكية ليس الا وأما اذا نزع من نفسه العوامل التى أحدثت فيه تلك العواطف وخلع ما البسه اياه أسلافه من أردية

الوراثة وبحث فى المسئلة من جميع جهاتها بحيث من لم يتأثر الا بالتجربة التى تجرى فى الوقائع الصحيحة وحصل لنفسه رأياً من ملاحظاته الشخصية. وكان ممن تنجذب نفسه للحق وتنبعث الى السعى للوقوف عليه وتأييده لماله عندها من المنزلة العلية والمكان الرفيع . وكان لا يغش نفسه بالتزويق والتزيين الوهميين وانما يسمع صوت وجدانه السليم ويرجحه على كل هوى سواه مهما كانت زوجته من التمكن فيمن حوله من الناس ـ فعند ذلك يرى أن المرأة لا تكون ولا يمكن ان تكون وجوداً تاماً الا اذا ملكت نفسها وتمتعت بحريتها الممنوحة لها بمقتضى الشرع والفطرة معاً ونمت ملكاتها الى أقصى درجة يمكنها أن تبلغها . ويرى أن الحجاب على ما ألفناه مانع عظيم يحول بين المرأة وارتقائها وبذلك يحول بين الامة وتقدمها

بينا عند الكلام على تربية المرأة مالها من المزايا الجليلة والآثار الحسنة التى تترتب عليها فى شؤونها نفسها وشؤون بيتها وفى الاجتماع الذى هى فيه . وذكرنا أن من أكبر أسباب كل ضعف الأمة حرمانها من أعمال النساء وأن تربية الطفل لا تصلح الا اذا كانت أمه مرباة وقررنا أن الولد ذكراً كان أو أنثى لا يملك صحة ولا خلة ولا ملكة ولا عقلا ولا عاطفة الا من طريقين : الوراثة والتربية . واستدللنا على أن الوالد يرث من أمه قدر ما يرث من والده على الأقل . وان

تأثير الأم فى تربية الطفل بعدولاته أعظم من تأثير أبيه . ونريد أن نبرهن هنا على أن تربية الأم نفسها لا يمكن أن تتم اذا استمر حجاب النساء على ماهو عليه الآن حتى اذا انتهى القارىء من تلاوة هذا الباب رأى كيف ترتبط المسائل بعضها ببعض وكيف ان أصغرها يتوقف عليه أعظمها :

اذا أخذنا بنتاً وعلمناها كل مايتعلمه الصبي فى المدارس الابتدائية وربيناها على أخلاق حميدة ثم قصرناها فى البيت ومنعناها عن مخالطة الرجال فلاشك أنها تنسى بالتدريج ماتعلمته وتتغير أخلاقها على غير شعور منها وفى زمن قليل لانجد فرقاً بينها وبين أخرى لم تتعلم أصلا ذلك لان المعارف التى يكسبها الانسان وهو فى سن الصبا لايحيط بدقائقها ومناشئها ولذلك لايكون علمه فيها علماً تاماً كاملا . وانما يتم له شيء من ذلك اذا بلغ سن الرجولية واستمر على مزاولة العمل والاشتغال . فالصبي يحفظ اسم الاشياء أكثر مما يفهم معانيها وأكبر فائدة يستفيدها فى هذا الطور من التعليم انما هى التعود على العمل وحب استطلاع الحقائق والاستعداد للدراسة . فان وقف سير التعليم فى هذا السن اضمحلت المعلومات المستفادة وانتثرت من الذهن شيئاً فشيئاً وكان مامضى من الوقت فى التعليم زمناً ضائعاً

ولما كان بين السن الذى تحجب فيه المرأة ـ وهو مابين

الثانية عشرة والرابعة عشرة من عمرها هو السن الذى يبتدىء فيه الانتقال من الصبا الى الرجولية وتظهر فيه حاجة المرأة كما تظهر حاجة الرجل الى اختبار العالم والبحث فى الحياة وماتستدعيه وهو السن الذى تظهر فيه الملكات وتظهر الميول والوجدانات . وهو السن الذى يتعلم فيه الانسان نوعاً آخر من العلم أنفس مما تعلمه فى المدارس وهو علم الحياة وطريق تحصيل ذلك العلم انما هو بالاختلاط مع الناس واختبارهم واستعراف أخلاقهم وفى هذا السن يبتدىء الانسان يعرف شعبه وملته ووطنه ودينه وحكومته.

وفى هذا السن يبتدىء استعداد كل شخص وميله وكفاءته فى الظهور فيندفع الى الاعمال اندفاع الماء فى المنحدرات . وهو سن الآمال والرغائب والنشاط فان حجبت فيه الفتاة وانقطعت عن هذا العالم بعد أن كانت المواصلة بينه وبينها مستمرة وقف نموها بل رجعت القهقرى وفقدت كل ما كان يزين نفسها ونسيت كل معارفها وخابت كل مساعيها وضاعت آمالها وآمال الناس فيها . ولا ذنب عليها فى ذلك فهى عاجزة مسكينة قضت عليها عادة سخيفة بالحرمان المؤبد من الترقى والكمال

ربما يقال أن فى طوع المرأة وامكانها ان تستكمل تربيتها وتتم دراستها فى بيتها وهو وهم باطل . فان الرغبة فى اكتساب العلم

والتشوق لاستطلاع ما عليه الناس فى أحوالهم وأميالهم وحب استكشاف الحقائق وكل مايستميل النفس الى المطالعة والدرس لايتوفر للمرأة مع حجابها . ذلك لان الحجاب يحبس المرأة فى دائرة ضيقة فلا ترى ولا تسمع ولا تعرف الا مايقع فيها من سفاسف الحوادث ويحول بينها وبين العالم الحى وهو عالم الفكر والحركة والعمل فلا يصل اليها منه شىء وان وصل اليها بعضه فلا يصل الا محرفاً مقلوباً . أما اذا استمرت المواصلات بينها وبين العالم الخارجى فانها تكتسب بالنظر فى حوادثه وتجربة مايقع فيه من معارف غزيرة تنبث فيها من المخالطات والمعاشرات والمشاهدة والسماع ومشاركة العالم فى جميع مظاهرة الحياة . وقد يكفى فى إعانتها على كسب ذلك كله والانتفاع منه ماحصلته بالتعليم من المعارف الاولى وربما يمكنها ان تستغنى عن تعلم تلك المعارف الاولى اذا حسنت الفطرة وجادت القريحة

وعلى فرض ان المرأة يمكنها فى احتجابها ان تستكمل مانقص منها علماً وأدبا بقراءة الكتب فمن البديهى ان كل ما تحصله من الكتب يعد من قبيل الخيالات ان لم تمكنه التجربة ويؤكده العمل . ولو عاملنا أخوتها الصبيان كما تعاملها وحجبناهم فى البيوت حتى بلغوا سن الخامسة عشر لكانت النتيجة واحدة . بل لو أخذنا رجلا بلغ

الاربعين من عمره وحجبناه عن العالم وألزمناه ان يعيش بين اربعة جدران وسط النساء والاطفال والخدام لشعر بانحطاط تدريجى فى قواه العقلية والادبية ولابد من يوم يجد فيه نفسه مساوياً لهم . فاذا يكون من الخطأ أن نصور أننا متى علمنا بناتنا جازلنا أن نحجبهن متى بلغن سناً خصوصا وان مجرد ذلك التليم الاول يكفى فى التوقى من الضرر . لان الضرر فى الحجاب عظيم وهو ضياع ما كسبنه بالتعليم وحرمانهن من الترقى فى مستقبل العمر والأمر فى ذلك واضح لايحتاج الى دليل . ويكفينا أن نرجع الى أنفسنا ونخطر ببالنا ما كنا عليه فى الخامسة عشرة من عمرنا فيتبين لنا أننا كنا اشبه بالاطفال لانكاد نعلم شيئاً من العالم ولانعرف للحياة قيمة ولانميز كمال التميز مالناوماعلينا ولاتمتاز لدينا حقوقنا وواجباتنا وليس لناعزيمة ثابتة فى مجاهدة انفسنا . وانأ كبر عامل له أثر فى تكميلنا هو استمرار تعلمنا وتربية عقولنا ونفوسنا استمراراً لاانقطاع معه . وان ذلك لم يتم لنا بقراءة الكتب بل بالمشاهدة والمخالطة وتجربة الناس والحوادث

وفى الحقيقة أن تربية الانسان ليس لهاسن معين تنقطع بعده ولا حد معروف تنتهى عنده فهى لاتنال بحفظ مقدار من العلوم والمعارف يجهد الانسان نفسه فى اكتسابه فى سنين معدودة ثم

يقضى حياته بعد ذلك فى الراحة

التربية ليست ذلك الشىء البسيط الذى يفهمه عامة الناس حيث يتصورون أنها عبارة عن تخزين كمية من المعارف المقررة فى بروجرامات المدارس ثم امتحان ثم شهادة ليس بعدها الا البطالة والجمود . وانما التربية هى العمل المستمر الذى تتوسل به النفس الى طلب الكمال من كل وجوهه . وهذا العمل لابد منه فى جميع أدوار الحياة حيث يبتدىء من يوم الولادة ولا ينتهى الا بالموت

واذا أراد القارىء أن يتبين صحة ما أسفلته من مضار الحجاب على وجه لا يبقى للريب معه مجال فما عليه الا أن يقارن بين امرأة من أهله تعلمت وبين أخرى من أهل القرى أو من المتجرات فى المدن لم يسبق لها تعليم . فانه يجد الاولى تحسن القراءة والكتابة وتتكلم بلغة أجنبية وتلعب البيانو ولكنها جاهلة بأطوار الحياة بحيث لو استقلت بنفسها لعجزت عن تدبير أمرها وتقويم حياتها . وأن الثانية مع جهلها قد أحرزت معارف كثيرة اكتسبتها من المعاملات والاختبار وممارسة الأعمال والدعاوى والحوادث التى مرت عليها وأن كل ذلك قد أفادها اختباراً عظيماً : فاذا تعاملتا غلبت الثانية الأولى

ومن هذا نرى أغلب نساء نصارى الشرق وان لم يتعلمن

فى المدارس أكثر مما يتعلمه بعض بناتنا الآن فهن يعرفن لوازم الحياة لكثرة مارأين وسمعن باختلاطهن بالرجال فقد ورد على عقولهن معان وافكار وصور وخواطر غير مااستفدنه من الكتب فارتفعن بفضل هذا الاختلاط الى مرتبة أعلى من المرأة المسلمة المواطنة لهن مع أنهن من جنس واحد وإقليم واحد

نرى فى المرأة عندنا من الاستعداد الطبيعى مايؤهلها لان تكون مساوية لغيرها من الأمم الأخرى لكنها اليوم فى حالة انحطاط شديد . وليس لذلك سبب آخر غير كوننا جردناها من العقل والشعور وهضمنا حقوقها المقررة لها وبخسناها قيمتها

وقد جرنا حبنا لحجاب النساء الى افساد صحتهن فألزمناهن القعود فى المساكن وحرمناهن الهواء والشمس وسائر أنواع الرياضة البدنية والعقلية

ليس فينا من لايعرف أن من النساء من لايفارقن بيوتهن لاليلا ولا نهاراً بل يلازمنها ولايرين لهن شريكا فى الوجود الأجارية أو خادمة أو زائرة تجيئها لحظات من الزمن وتنصرف عنها . ولايرين أزواجهن الا عند النوم لانهم يقضون نهارهم فى أشغالهم ويقضون الجزء العظيم من ليلهم عند جيرانهم أو فى الاماكن العمومية

ليس فينا من لايعرف أن نساء كثيرة فقدن صحتهن فى هذه المعيشة المنحطة وفى هذا السجن المؤبد . وأنهن عشن عليلات الجسم والروح ولم يذقن شيئاً من لذة هذه الحياة الدنيا

لذلك كان أغلب نسائنا مصاباً بالتشحم وفقر الدم ومتى ولدت المرأة مرة تداعت بنيتها وذبل جسمها وظهرت عجوزاً وهى فى ريعان شبابها : كل ذلك منشأه خوف الرجل من الاخلال بالعفة !

على أن القول بأن الحجاب موجوب العفة وعدمه مجلبة الفساد قول لايمكن الاستدلال عليه لانه لم يقم أحد الى الآن باحصاء عام يمكن أن نعرف به عدد وقائع الفحش بالضبط والدقة فى البلاد التى تعيش فيها النساء تحت الحجاب وفى البلاد الأخرى التى تتمتع فيها بحريتهن . ولو فرض وقوع مثل ذلك الاحصاء لما قام دليلا على الاثبات أو النفى فى المسئلة لان ازدياد الفساد فى البلاد ونقصه مما يرتبط بامور كثيرة ليس الحجاب أهمها

ومن المعروف أن لطرق معيشة الامة ومزاجها وأقليمها وآدابها وتربيتها دخلا عظيماً فى فساد أخلاقها وصلاحها . ولهذا نرى الفساد يختلف في بلاد أوروبا بين بلد وآخر اختلافاً ظاهراً ونرى أيضاً مثل هذا الاختلاف بين البلاد التى لاتزال فيها عادة الحجاب باقية . بل نرى اختلافاً كبيراً بين زمن وزمن فى بلد واحد . والتجارب

ترشد الى أمر يمكن أخذه دليلا على أن الاطلاق أدنى بالنساء الى العفة من الحجاب فمن المشاهد الذى لاجدال فيه أن نساء أمريكا هن أكثر نساء الارض تمتعاً بالحرية وهن اختلاطاً بالرجال حتى أن البنات فى صباهن يتعلمن مع الصبيان فى مدرسة واحدة فتقعد البنت بجانب الصبي لتلقى العلوم . ومع هـذا يقول المطلعون على أحوال أمريكا أن نساءها أحفظ للاعراض وأقوم أخـلاقاً من غـيرهن وينسبون صلاحهن الى شدة الاختـلاط بين الصنفين من الرجال والنساء فى جميع أدوار الحياة . ومن المشاهد الذى لانزاع فيه أيضا أن نساء العرب ونساء القرى المصرية مع اختـلاطهن بالرجال على مايشبه الاختلاط فى أوروبا تقريبا أقل ميلا للفساد من ساكنات المدن اللائى لم يمنعهن الحجاب من مطاوعة الشهوات والانغماس فى المفاسد . وهذا مما يحمل على الاعتقاد بأن المرأة التى تخالط الرجال تكون أبعد عن الافكار السيئة من المرأة المحجوبة . والسبب فى ذلك أن الاولى تعودت رؤية الرجال وسماع كلامهم فاذا رأت رجلا أيا كان لم يحرك فيها منظره فيها شيئاً من الشهوة . بل لو عرض عليها شيء من هـذا فانما يكون بعد مصاحبة طويلة وقضاء أوقات فى خلوات كثيرة يحدث فيها ماقد يشعر كل واحد منهما بانجذاب الى الآخر : وهذا هو مامنعته الشريعة وبينا امتناعه فيما سبق . أما

الثانية فمجرد وقوع نظرها على رجل يحدث فى نفسها خاطر اختلاف الصنف من غير شعور ولا تعمد ولا نية سيئة . وانما هو أثر منظر الرجل الأجنبي لانه قد وقر فى نفسها أن لا تراه ولا يراها فمجرد النظر اليه كاف فى أثار هذا الخاطر

وقد شاهدت مراراً كما شاهد غيرى هذا الأثر عينه فى الرجال . فرأيت أن الرجل لم يتعود الاختلاط بالنساء ان لم يغلبه سلطان التهذيب القوى لا تملك نفسه اذا جاس بينهن فلا تشبع عينه من النظر اليهن ومن التأمل فى محاسنهن وينسى فى ذلك كل أدب ولياقة وربما طلب الوسائل الملامستهن بيده أو مماستهن بكتفه ويندفع الى أقوال وأعمال تشمئز منها نفوس الحاضرين كأنه يظن بالفعل — أنه لا معنى لاجتماع الرجل مع المرأة فى مكان واحد الا أن يتمتع كل منهما بشهوة مع الآخر بخلاف الرجل الذى اعتاد على مخالطة النساء فانه لا يكاد يجد فى نفسه أثراً من رؤيتهن أكثر مما يجده عند رؤية الرجال ولا يشعر بأدنى اضطراب فى حواسه ولا فى مشاعره . فمن ألزم لوازم الحجاب أنه يهيء الذهن فى الرجال وفى النساء معا لتخيل الشهوة بمجرد النظر أو سماع الصوت . وهذا يوضح لنا السبب فيما نشاهده كل يوم من أن المرأة اذا رأت رجلا فى الطريق أو دعتها الضرورة لمخاطبته تتصنع فى حركاتها وصوتها ما تظن أنه يروق فى عين

الرجل ـ والرجل كذلك

قدشاهدت وشاهد كل انسان مايخالف ذلك فى بلاد أوروبا وفى الاستانة وفى القرى المصرية وبين الأعراب فى البادية حيث يمر الرجال والنساء بعضهم بجانب بعض وكتفا لكتف ولا يلتفت أحدهم الى الآخر :

ولا ريب أن استلفات الذهن دائما الي اختلاف الصنف من أشد العوامل فى أثارة الشهوة

وبديهى أن المرأة التى تحافظ على شرفها وعفتها وتصون نفسها عما يوجب العار وهى مطلقة غير محجوبة لها من الفضل والأجر أضعاف مايكون للمرأة المحجوبة . فان عفة هذه قهرية أما عفة الأخرى فهى اختيارية والفرق كبير بينهما . ولاأدرى كيف تفتخر بعفة نسائنا ونحن نعتقد أنهن مصونات بقوة الحراس واستحكام الاقفال وارتفاع الجدران ؟

أيقبل من مسجون دعواه أنه رجل طاهر لانه لم يرتكب جريمة وهو فى الحبس ؟ فان كانت نساؤنا محبوسات محجوبات فكيف يمكنهن أن يتمتعن بفضيلة العفة . وما معنى أن يقال أنهن عفيفات ؟ أن العفة هى خلق للنفس تمتنع به من مقارفة الشهوة مع القدرة عليها . ولعل التكليف الالهى انما يتعلق بما يقع تحت الاختيار لا بما يستكره

عليه من الاعمال . فالعفة التى تكلف بها النساء يجب أن تكون من كسبهن ومما يقع تحت اختيارهن لاأن يكن مستكرهات عليها والا فلا ثواب لهن فى مجرد الكف عن المنكر . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : * من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد *

والحقيقة أننا نعمل عمل من يعتقد أن النساء عندنا لسن أهلا للعفة . أليس من الغريب أن لا يوجد رجل فينا يثق بامرأة أبداً مهما اختبرها ومهما عاشت معه ؟ أليس من العار أن نتصور أن أمهاتنا وبناتنا وزوجاتنا لا يعرفن صيانة أنفسهن ؟ أيليق أن لا نثق بهؤلاء العزيزات المحبوبات الطاهرات وأن نسىء الظن بهن الى هذا الحد ؟

أني أسأل كل انسان خالى الغرض : هل هذه المعاملة يليق أن يعامل بها انسان له من خاصة الانسان مالنا ؟ فهو مثلنا له روح ووجدان وقلب وعقل وحواس . وهل سوء الظن فى المرأة الى هذا الحد يتفق مع اعتبارنا لأنفسنا واعتبار المرأة لنفسها ؟

والعاقل يرى أن الاحتياط الذى يتخذه الرجال لصيانة النساء عندنا مهما بلغ من الدقة لا يفيد شيئاً ان لم يصل الرجل الى امتلاك قلب امرأته . فان ملكه ملك كل شىء منها وان لم يملكه لم يملك منها شيئاً . ذلك لانه ليس فى استطاعة رجل أن يراقب حركات امرأته

وسيرها فى كل دقيقة تمر من الليل والنهار

متى خرج أحدنا من منزله أو سمح لامرأته أن تخرج بسبب من الاسباب فعلى م يتكل ان لم يكن على صيانتها وحفظها نفسها بنفسها ثم ماذا يفيد الرجل أن يملك جسم امرأته وحده اذا غاب عنه قلبها ؟ أيستطيع أن يمنعها أن تتصرف فيه وتبذله أى شخص تريد ؟ فاذا رأت امرأة من الشباك رجلا فأعجبها ومالت اليه بقلبها وودت أن تواصله لحظة أفلا يعد هذا فى الحقيقة من الزنا ؟ ألم يتمزق حجاب العفة فى هذه اللحظة ؟ وهل بعد المسافة بينها وبين الرجل وعدم تمكنها من مواصلته يسمى عفة ؟ نعم ان الشرائع لا تعاقب ولا تقيم الحد على زنا العين والقلب لان العقوبات والحدود لا سلطان لها على الخواطر والقلوب . ولكن فى نظر أهل الادب والتقوى لا عبرة للبعد بين الاجساد اذا تواصلت الارواح واجتمعت القلوب

ومع ذلك ما الذى فعل الحجاب ؟ ألم نسمع بما يجرى فى داخل البيوت مما ينافى العفة ويخل الشرف ؟ هل منع البرقع وقصر النساء وراء الحجاب ولاقفال سريان الفساد الى ماوراء تلك الحجب ! كلا

ربما يقول قائل أن مانسمعه اليوم عن كثير من النساء أكثر مما كنا نسمعه سابقاً وأن الاشاعات عن الفساد أشد انتشاراً . بل ربما كان الفساد فى الواقع أوسع دائرة مما كان عليه قبل ثلاثين سنة

مثلا ولا منشأ لذلك الارقة الحجاب . فالحالة القديمة على مافيها كانت أصون للاعراض واحفظ لشرف المرأة من تلك الحالة التى طرأت على النساء ـ فنجيب عن ذلك بأننا لا ننكر أن بعض الطباع الفاسدة من الرجال والنساء معاً وجدت سبيلا من تخفيف الحجاب الى تعارف بعضها ببعض واتيان ماتميل اليه من المنكر . بل نزيد عليه أنه لو استمر تخفيف الحجاب يتقدم بالسرعة التى سار بها الى الآن ـ والنفوس على ماهى عليه ـ لعمت البلوى وازداد الفساد انتشاراً

غير أن السبب فى ذلك ليس هو تخفيف الحجاب . بل هو راجع الى أمور كثيرة يجمعها الجهل وسوء التربية

فسوء التربية هو علة الخفة والطيش . وهو الذى يسهل على امرأة ذات مكانة فى بيتها وقومها أن تطيل نظرها الى شاب يمر فى طريقها . وسوء التربية هو الذى يخفف عندها تبعة تحريك يدها لاجابة ذلك الشاب فيما يشير به اليها . وسوء التربية هو الذى يدفع بها الى الاتفاق معه على التلاقى بل والتواصل قبل أن يدور كلام بينه وبينها . وانما أركان عقد ذلك الاتفاق هى نظرات واشارات لا تفصح عن خلق من الاخلاق ولا عن ملكة من الملكات ولا عن درجة من العرفان ولا تدل على حالة نفسية ولا عقلية ولا جسمية يمكن الارتباط بها بين شخصين

سوء التربية هو الذى يخرق كل حجاب ويفتح على المرأة من الفساد كل باب . وهو الذى يخشى معه أن تسرى العدوى من امرأة الى امرأة ومن طبقة الى طبقة . فقد نرى أن المحجبات مهما بالغن فى التحجب لا يستنكفن أن يختلطن بنساء أحط منهن فى الدرجة أو بعد عن التصون والعفة . فسيدة المنزل لا ترى بأساً فى مخالطة زوجة خادمها بل قد تأنس بالحديث معها وسماع ما تنقله اليها من غير مبالاة بما يلائم الحشمة وما لا يلائمها . ولا تأنف التفتح فى القول مع الدلالات وبائعات الأقمشة . بل قد يطوحها الجهل الى الاختلاط بنسوة لا تعرف شيئا من حالهن ولا من أى مكان أتين ولا بأى خلق من الاخلاق تخلقن . وأشنع من هذا كله وأشد منه فعلا فى افساد الاخلاق أن نساء من المومسات اللاتى يحملن تذكرة رسمية يدعون فى الافراح ويرقصن تحت أعين الأمهات والبنات والكبار والصغار

هذا ما يأتى من سوء التربية وهو من أشد العوامل فى تمزيق ستار الادب وليست رقة الحجاب بشىء فى جانب هذا كله

طرقت ديارنا حوادث وداخلنا ضرب من الاختلاط مع أمم كثيرة من الغربيين ووجدت علائق بيننا وبينهم علمتنا أنهم أرقى منا وأشد قوة . ومال ذلك بالجمهور الأغلب منا الى تقليدهم فى ظواهر عوائدهم خصوصاً ان كان ذلك ارضاء لشهوة أو اطلاقاً من قيد .

فكان من ذلك كثيراً من أعليائنا تساهلوا لزوجاتهم ومن يتصل بهم من النساء وتسامحوا لهن فى الخروج الى المنتزهات وحضور التياترات ونحو ذلك وقلدهن فى ذلك كثير ممن يليهن وعرض من هذه الحالة بعض فساد فى الاخلاق

تلك حالة طرأت للاسباب التى تقدمت وتبعها من العواقب ماييناه . ولكن ليس من مصلحتنا بل ولا من المستطاع لنا محو هذه الحالة والرجوع الى تغليظ الحجاب . بل صار من متممات شؤوننا أن نحافظ عليها ونتقى تلك المضار التى نشأت عنها . وذلك هو ما نستطيعه أيضاً

أما أنه ليس من مصلحتنا أن نمحو هذه الحالة فلما قدمناه فى مضار الحجاب على الوجه المعروف . وأما أننا لا نستطيع ذلك فلأن أسباب هذه الحالة مما فصلناه سابقاً لا تزال موجودة وهى تزداد بمرور الزمان رغماً عنا . ولا نناقد وجدنا من أنفسنا ميلا الى حسن المعاملة فى معاشرة النساء وزين فى أنفس الكثير منا حب المجاملة فى مرضاتهن ونشأت لهن فى قلوب الرجال منزلة من الاعتبار لم تكن لهن من قبل . وأحس النساء بذلك من رجاهن فعددن ماوصلن اليه من الحرية والاطلاق حقاً من الحق وضرورياً من ضروريات المعيشة : فلا يسهل على الرجال أن يقضى على امرأته اليوم بما كان يقضى

به من قبل أربعين سنة

والذى يجب علينا هو معالجه المضار التى يظن أنها تنشأ عن تخفيف الحجاب . ولاتوجد طريقة أنجع فى ذلك العلاج الاالتربية التى تكون هى الحجاب المنيع والحصن الحصين بين المرأة وبين كل فساد يتوهم فى أنه درجة وصلت اليها من الحرية والاطلاق

سيقول معترض أن التربية والتعليم يصلحان أخلاق المرأة واما الاطلاق فربما فى فسادها . فنجيب أن الاطلاق الذى نطالب به هو محدود يحظر الخلوة مع أجنبى . وفى هذا الحظر مايكفى لاتقاء المفاسد التى لاتتولد الامن الخلوة . أما الاطلاق فى نفسه فلا يمكن أن يكون ضاراً أبداً متى كان مصحوباً بتربية صحيحة . لان التربية الصحيحة تكون أفراداً أقوياء بأنفسهم يعتمدون على أنفسهم ويسيرون بأنفسهم . فمن كملت تربيته استقل بنفسه واستغنى عن غيره . ومن نقصت تربيته احتاج الى الغير فى كل أموره . فالاستقلال فى النساء كالاستقلال فى الرجال يرفع الأنفس من الدنايا ويبعد بها عن الخسائس . لذلك يجب أن يكون هو الغاية التى نطلبها من تربية النساء

حسن التربية واستقلال الارادة هما العاملان فى تقدم الرجال فى كل زمان ومكان . وهما مطمح آمال كل أمة تسعى الى سعادتها وهما من أشرف الوسائل لابلاغها من الكمال ماأعدت له . فكيف

يمكن لعامل أن يدعى ان لهذين العاملين أثراً آخر سيئاً فى أنفس النساء ؟ ومن زعم أن التربية واستقلال الارادة مما يساعد على فساد الاخلاق فى المرأة فقد قصر نظره على بعض الاعتبارات التى لايخلو منها أمر من الأمور النافعة فى العالم فان لكل نافع ضرراً اذا أسىء استعماله

هذا تقليم الرجال لايخلو من العيوب الكبيرة وكثير منهم يستعمل علمه واختياره فيما يضر بنفسه أو بغيره . فهل ذلك يحمل أحداً من الناس على ان يقول أن من الصواب أن لايعلم الرجال شيئاً خوف استعمال مايتعلمون فيما يسوءهم أو يسوء غيرهم . وان من الواجب أن يتركوا فى الجهل تحت حجاب الغفلة ؟ لاأظن أن عاقلا يخطر هذا الخاطر بباله . فاذا كان اجماعنا قد انعقد على ان الاخير للرجال فى الجهل والاستعباد . وان لاسبيل لهم الى بلوغ درجات الفضل الا بالعلم وحرية الفكر والعمل . فمالنا نختلف فى هذه القضية نفسها اذا عرض ذكر المرأة ؟ وأى فرق بين الصنفين فى الفطرة والخلقة

والحق انا غالينا فى اعتبار صفة العفة فى النساء وفى الحرص عليها وفى ابتداع الوسائل لحفظ ماظهر منها وتفخيم صورتها حتى جعلنا كل شىء فداءها وطلبنا أن يتضاءل ويضمحل كل خلق وكل ملكة دونها . نعم العفة أجمل شىء فى المرأة وأبهى حلية تتحلى بها .

ولكن العفة لاتغنى شيئاً عن بقية الصفات والملكات التى يجب أن تتحلى نفس المرأة بها من كمال العقل وحسن التدبير والخبرة بتربية الأولاد وحفظ نظام المعيشة فى البيت والقيام على كل مايعهد اليها من الشؤون الخاصة بها . بل نقول ان لهذه الصفات دخلا كبيراً فى كمال العفة وفقدان المرأة خصلة من هذه الخصال لاينقص فى ضرره وفى الحط من شأنها عن فقدان العفة نفسها

اتفقت الشرائع الالهية والقوانين الوضعية على أن عقد الزواج وحده هو الذى يحلل الاجتماع بين الرجل والمرأة وان اجتماعهما بدون ذلك العقد المقدس ممنوع وممقوت . ذلك أمر اقتضاه نظام العشيرة وكمال النفس الانسانية فالعمل على مايخالفه قبيح مذموم بلاريب . غير أن تلك الشرائع الالهية والقوانين الوضعية قد حظرت أعمالا أخرى وأنزلتها من الشناعة منزلة لاتنحط عن منزلة الخنا . ووضعت عليها عقوبات أشد من العقوبة عليها لانها اعتبرت أن لتلك الاعمال من الضرر بالنظام ماهو أشد من ضرر الزنا . ولنضرب مثلا بجريمة القتل فانها أعظم من جريمة الزنا فى نظر الدين والقانون . فلم لم نتخذ للوقاية منها من الوسائل الضارة ماتخذناه للوقاية من الزنا !

انا معرضون فى كل ساعة تمر من حياتنا الى مصائب لاتحصى

وهذا لا يمنعنا من أن نتحرك ونقتحم الاخطار فى الاسفار لنحصل من رزق الله ما نحتاج اليه . انا نشعر بانواع الجرائم ترتكب من حولنا فالقتل والنهب والنصب والتزوير والقذف وغيرها من الجرائم تزعج الساكن وتقلق المطمئن ومع ذلك فانا نحتمل مصائبها ونسلم لحكم القدر فيها ونجتهد فى تطهير المجتمع منها بالوسائل المشروعة من تربية أو ايقاع العقوبة على مرتكب الجريمة . فلم لا يكون ارتكاب الفحش من المرأة جريمة من هذه الجرائم التى لا يخلو منها مجتمع انسانى ؟ ولم نتخيل أنها اشنع وافظع من سواها حتى اتخذنا لمنعها مالم نتخذه لمنع غيرها

وعلى أى حال فليس من الجائز أن تأتى ما فيه ضرر محقق لنتقى به ضرراً وهمياً . فوقوع الفحش من المرأة أمر محتمل الوقوع قد يكون وربما لا يكون . اما حجابها ومنعها من التمتع بقواها الغريزية فهو ضرر محقق لاحق بها حتماً . وياليته اقتصر عليها ولكنه يتعداها الى كل مايقع تحت رعايتها

يتوهم أحدنا ان امرأته ربما تميل الى غيره ان رفع الحجاب عنها فلذلك يزج بها وراء الأبواب ويغلق عليها الاقفال ويظن بذلك انه قد استراح من الوسواس وهو لا يدرى ماربما يأتيه من . . . حيث لا يدرى فلم يفده حرصه شيئاً فى الحقيقة . ومع هذا فهو

يعمله قدقتل نفساً حية وأفسد نفوساً كثيرة ممن تتوالاهم زوجته في بيته في سبيل مايظنه راحة لنفسه

توهم كثير ممن سبقنا مثل ماتوهمنا وحجبوا نساءهم كما نحجب نساءنا بل فاقونا في التفنن واتخاذ الطرق لاطمئنان أنفسهم من ناحية زوجاتهم . وهو نطاق من حديد يتصل به حفاظ ولذلك النطاق قفل يكون مفتاحه في جيب الرجل دائماً . ولكن هذا لم يمنع النساء من أن يمنحن عشاقهن مفتاحاً مصطنعاً ثم مالبث هؤلاء الأمم أن أدركوا خطأهم وعرفوا أن ضرر تلك الأوهام اكثر من نفعها . ولما أخذت المعارف تنتشر بينهم شرعوا في قياس اعمالهم المعاشية بمقياس العقل السليم والعلم الصحيح الخالص من شائبة الوهم . وأدركوا أن سعادتهم لاتتم بما ينالون من ثمار ذلك الا اذا شاركهم نساؤهم في مساعيهم وعاونهم في لمشعثهم وتكميل نقصهم فاعدوهن بالتربية والعلم الى ماأملوا منهن . فافتككن من أسرهن وتمتعن بحريتهن وسرن مع رجالهن يعاونهم في الحياة ويمددنهم بالرأي في كل أمر . ولست مبالغاً أن قلت أن ما أقامه التمدن الحديث من البناء الشامخ وماوضعه من الاصول الثابتة انما شيد على حجر أساسي واحد هو المرأة

لم يكن ماستفاده الغربيون من تربية نسائهم والتساهل لهن

فى مخالطتهم قاصراً على المزايا التى أشرنا اليها بل كان لهم مع ذلك فوائد جمة فى تدبير المعيشة وتيسر طرق الاقتصاد

تدخل بيت الغربى من أهل الطبقة الوسطى فتجده أتم نظاماً وأكمل ترتيباً وأجمل أثاثاً من بيت الشرقى من أهل طبقته . ومع ذلك تجد نفقة الغربى أقل من نفقة الشرقى بكثير

أنظر الى الواحد منا تجد مسكنه لابد أن يكون الى قسمين قسم للرجال وآخر للنساء . فان أراد أن يبنى بيتاً فعليه أن يهىء ما يكفى لبناء بيتين فى الحقيقة واذا استأجر بيتا فهو انما يستأجر فى الواقع بيتين ويتبع ذلك مايلزم لكل منهما من الأثاث والفرش . ولابد له من فريقين من الخدم فريق يخدم الرجال فى القسم المختص به والآخر يختص بخدمة النساء داخل البيت . ثم لابد له من عربة للنساء وعربة للرجال لانه ليس من الجائز فى عرفنا أن يركب الرجل مع زوجته أو مع والدته فى عربة واحدة وهو مضطر لان يزيد فى النفقة للطعام ومايتبعه لانه اذا أتى ضيف واحد رجلا كان أو امرأة وجب تحضير مائدتين بدل واحدة كانت تكفى . وهكذا ترى نفقات ضائعة وثمرات كسب مستهلكة ولاسبب لها الا تشديد الحجاب على النساء

هل يظن المصريون أن رجال أوربا مع أنهم بلغوا من كمال العقل

والشعور مبلغاً مكنهم من اكتشاف قوة البخار والكهرباء واستخدامها على مانشاهد باعيننا . وأن تلك النفوس التى تخاطر فى كل يوم بحياتها فى طلب العلم والمعالى وتفضل الشرف على لذة الحياة . هل يظنون أن تلك العقول وتلك النفوس التى نعجب بآثارها يمكن ان يغيب عنها معرفة الوسائل لصيانة المرأة وحفظ عفتها ! هل يظنون أن أولئك القوم يتركون الحجاب بعد تمكنه عندهم لو رأوا خيراً فيه ؟ ـ كلا . وانما الافراط فى الحجاب من الوسائل التى تبادر عقول السذج وتركن اليها نفوسهم ولكنها يمجها كل عقل مهذب وكل شعور رقيق .

متى تهذب العقل ورق الشعور أدرك الرجل أن المرأة انسان من نوعه لها ماله وعليها ماعليه وأن لاحق لاحدهما على الآخر بعد توفية مافرضته الشريعة على كل منهما لصاحبه الامايعطيه كل من نفسه بمحض ارادته وحسن اختياره .

من تهذب العقل ورق الشعور فى الرجل عرف ان حجاب المرأة اعدام لشخصها فلاتسمح له ذمته بعد ذلك أن يرتكب هذه الجريمة توسلا الى مايظنه راحة بال واطمئنان قلت متى تهذب العقل ورق الشعور فى الزوج وجد من نفسه أن لا سبيل الى اطمئنان قلبه فى عشرة امرأة جاهلة مهما كان الحائل بينها وبين الرجل

متى تهذب العقل ورق الشعور فى الرجل ادرك ان ألذشىء تشتاق اليه نفسه هو حب يصل بينه وبين انسان مثله بحسن اختيار وسلامة ذوق لا بمجرد نزعات الهوى ونزوات الشهوة فيسعى جهده فيمايقويه ويشد عراه ويبذل ما فى وسعه للمحافظة عليه

متى تهذب العقل ورق الشعور فى الرجل والمرأة لا تقتنع نفوسهما بالا ختلاط الجسدانى وحده بل يصير أعظم همهما طلب الائتلاف العقلى والوحدة الروحية

ان طبيعة العصر الذى نحن فيه منافرة للاستبداد معادية للاستعباد ميالة الى سوق القوى الانسانية فى طريق واحد وغاية واحدة . فهذا الطائف الرحمانى الذى طاف على نفوس البشر فنبه منها ما كان غافلا لابد أن ينال منه النساء نصيبهن فمن الواجب علينا أن نمد اليهن يد المساعدة ونعمل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله فى الضعيفين المرأة واليتيم » . ولا شىء ادخل فى باب التقوى من تهذيب العقل وتكميل النفس واعدادها بالتعليم والتربية الى مدافعة الرذائل ومقاومة الشهوات ولا من حسن المعاملة واللطف فى المعاشرة فعلينا أن نجعل الصلة بيننا وبينهن صلة محبة ورحمة لا صلة اكراه وقسوة . هذا ما تفرضه علينا الانسانيه وتطالبنا به الشريعة وهو مع ذلك فريضة وطنية يجب علينا أداؤها

حتى تكون جميع أعضاء المجتمع عندنا حية عاملة قائمة بوظائفها

وقبل أن أختم الكلام فى هذا الباب أرى من الواجب على أن أنبه القارىء الى أنى لا أقصد رفع الحجاب الآن دفعة واحدة والنساء على ماهن عليه اليوم . فان هذا الانقلاب ربما ينشأ عنه مفاسد جمة لا يتأتى معها الوصول الى الغرض المطلوب كما هو الشأن فى كل انقلاب فجائى . وانما الذي أميل اليه هو أعداد نفوس البنات فى زمن الصبا الى هذا التغيير :

فيعودن بالتدريج على الاستقلال ويودع فيهن الاعتقاد بان العفة ملكة فى النفس لا ثوب يختفى دونه الجسم . ثم يعودن على معاملة الرجال من أقارب وأجانب مع المحافظة على الحدود الشرعية وأصول الادب تحت ملاحظة أوليائهن . عند ذلك يسهل عليهن الاستمرار فى معاملة الرجال بدون أدنى خطر يترتب على ذلك اللهم الا فى أحوال مستثناة لا تخلو منها محجبة ولا بادية

﴿ المرأة والامة ﴾

كل من تعلم من المصريين وساعده حسن الحظ على أن يستعرف أحوال أمته وحاجاتها ويحيط بها يعلم أن الامة المصرية دخلت اليوم فى دور مهم بل فى أهم دور من تاريخها

انى لا أجد فى ماضيها عصراً انتشرت فيه المعارف وظهر فيه

الشعور بالروابط الوطنية وأنبت الأمن والنظام فى أنحاء البلاد وتهيأت الاسباب للتقدم مثل العصر الذى نعيش فيه الآن . ولكنها من جهة أخرى لم يمر عليها زمن من صارت فيه حياتها معرضة للخطر مثل ما هى فى هذا الزمن . فان تمدن الامم الغربية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء حتى فاض من منبعه الى جميع انحاء المسكونة فلا يكاد يوجد منها شبر الا وطئه بقدمه . وكلما دخل فى مكان استولى على منابع الثروة فيه من زراعة وصناعة وتجارة . ولم يدع وسيلة من الوسائل الا استعملها فيما يعود عليه بالمنفعة وان أضر بجميع من حوله من سكان البقاع الاصليين . انه انما يسعى الى السعادة فى هذه الحياة الدنيا يطلبها انى وجدها وبأى طريقة يرى النجاح فيها . وهو فى الغالب يستعمل قوة عقله فاذا دعت الحال الى العنف واستعمال القوة لجأ اليهما . فهو لا يطلب الفخار والمجد فيما يمتلك او يستعمر لانه يجد ذلك متوفراً له فى أعماله العقلية واختراعاته العلمية . وانما الذى يحمل الانكليزى على ان يسكن الهند والفرنساوى الجزائر والروسى الصين والالمانى زنجبار هو حب المنفعة والرغبة فى تحصيل اثروة من بلاد تحتوى على كنوز لا يعرف أهلها قيمتها وطرق الانتفاع بها !

فان صادفوا أمة متوحشة مهما كان بأسها أبادوا اهلها واهلكوهم او أجلوهم عن أرضهم كما حصل فى امريكا واستراليا وكما هو حاصل

الآن فى أفريقيا حيث لا يرى أثر الاهالى البقاع التى احتلتها الاوروباوى لانهم خرجوا منها طوعاً أو كرهاً . وان صادفوا أمة كأمتنا دخل فيها نوع من المدنية من قبل ولها ماض ودين وشرائع واخلاق وعوائد وشئ من النظامات الابتدائية خالطوا اهلها وتعاملوا معهم وعاشروهم بالمعروف . لكن لا يمضى زمن طويل الا وترى هؤلاء القادمين قد وضعوا يدهم على أهم أسباب الثروة لانهم أكثر مالا وعقلا وعرفاناً وقوة فيتقدمون كل يوم وكلما تقدموا فى البلاد تأخر ساكنوها. هذا ماسماه داروين قانون التزاحم فى الحياة فطرة الله التى فطر عليها جميع الانواع وأودعها لها لتعدها الى الرقى فى درجات الكمال . فما ضعف منها عند التزاحم عن مبالغة منازعه اضمحل ونبذه الوجود الى خفاء العدم . وما قوى عند التغالب أظفره الله بالنصر المبين فيرجع من ساحات هذا القتال الدائم مبرهناً بظفره على انه أفضل بنى نوعه واكرمهم فيعيش ويبقى ويتناسل وينمو ويظهر فيه كمال نوعه وتخلد به آثاره

فلا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء الا طريق واحدة لا مندوحة عنها . وهى أن تستعد الامة لهذا القتال ويأخذ له أهبتها وتستجمع من القوة مايساوى القوة التى تهاجمها من أى نوع كانت: خصوصاً تلك القوة المعنوية وهى قوة العقل والعلم التى هى أساس

كل قوة سواها

فاذا تعلمت الامة كما يتعلم مزاحموها . وسلكت فى التربية مسالكهم . وأخذت فى الاعمال مآخذهم وتدرعت للكفاح بمثل ماتدرعوا به أمكنها أن تعيش بجانبهم بل تيسر لها أن تسابقهم فتسبقهم فتستأثر بالخير دونهم . لان البلاد بلادها وأرضها أبربها منها بالغريب عنها وأبناءها أقدر على المعيشة فيها . وهم السواد الاعظم فكيف اذا ظفروا من أنفسهم بتلك الحال الشريفة لايفلحون ؟

وهذه الطريق ـ طريق النجاة ـ كما قدمت مفتوحة أمامنا ولا يوجد عائق يعوقنا عن السير فيها الا ما يكون من أنفسنا

فان كان للمصريين همة وصدق عزيمة فى طلب سعادتهم والمحافظة على بقائهم والسعى الى خلاصهم ونجاتهم من التهلكة فعليهم أن يسلكوا تلك الطريق ويخلعوا عنهم كل عادة سيئة وينزعوا من أنفسهم كل خليقة ممقوتة تعطل مسيرهم . وليعتمدوا على أنفسهم فى اصلاح أنفسهم . ولا تضيعوا أوقاتهم فى أمانى باطلة يلتمسون تحقيقها من حكومتهم لاتستطيع من العمل لهم الا قليلا أما هم فانهم يستطيعون أن يأتوا فى اصلاح شؤونهم بالجم الكثير . ماذا يفيدهم أن يقولوا كل يوم أن الحكومة لم تقم بما يجب عليها ؟ أهذا يمنعنا من أن نفعل مايجب علينا لأنفسنا ؟

نحن اليوم متمتعون بعدل وحرية لا أظن أن مصر رأت ما يماثلهما فى أى زمن من أزمانها . وهما الامران اللذان تحتاج اليهما الامة أشد الاحتياج ولا يتيسر بدونهما نجاح فى عمل من الاعمال العظيمة التى يقوم بها اصلاحها . فماعلينا الا أن ننتهز فرصة ماوصلنا اليه ونحرث أرضنا ونسقى غراسها وننتظر مايأتى به من الثمرات فاذا نضجت اقتطفناها . وكما أن الزراع يجب عليه قبل أن يلقى البذور فى الارض أن يهتم بمعرفة طبيعتها وما تحتاج اليه من الاعمال لتحضيرها وتهييئها حتى لا يضيع ماله وتعبه كذلك يجب علينا أن نبحث فى أسباب تأخرنا . فاذا عرفناها عمدنا الى ازالتها وصنا أنفسنا من التخبط على غير هدى وأرحنا أنفسنا من التجارب العقيمة

وقبل الكلام فيما نريد البحث فيه نثبت هنا أمراً لاحظه كل من له المام باحوال الشرق : وهو تأخر المسلمين عام فيه أين كانوا . فالسبب يجب أن يكون عاماً أيضاً

أما اختلاف الشعوب وألاقاليم فليس له تأثير كثير فى انحطاط المسلمين . اذ لو كان له أثر لوجد اختلاف بين التركى والمصرى والهندى والفارسى والبشناقى والصينى من حيث العمران والمدنية ولكنا لانرى اختلافاً بينهم من هذه الجهة وانما الاختلاف محصور فى بعض الصفات النفسانية وبعض العوائد . ذلك هو كل مافعله اختلاف الشعوب

والاقاليم . فالتركى مثلا نظيف صادق شجاع والمصرى على ضد ذلك الا انك تراهما رغماً عن هذا الاختلاف متفقين فى الجهل والكسل والانحطاط . اذاً لابد أن يكون بينهما أمر جامع وعلة مشتركة هى السبب الذى أوقعهما معاً فى حالة واحدة

ولما لم يكن هناك أمر يشمل المسلمين جميعاً الا الدين ذهب جمهور الاوروباويين وتبعهم قسم عظيم من نخبة المسلمين الى أن الدين هو السبب الوحيد فى انحطاط المسلمين وتأخرهم عن غيرهم حتى الذين يشاركونهم فى الاقليم ويساكنونهم فى البلد الواحد . ولم يقصد أحد منهم خصوصاً أفاضل المسلمين المشتغلين باحوال الامم الاسلامية أن يتهم الدين الاسلامى الحقيق بانه السبب فى انحطاط المسلمين . فان كل من عرف هذا الدين من الاجانب فضلاعن أبنائه المنتسبين اليه يجل قدره ويحترمه ويعترف ان آثاره الماضية فى الامم التى انتشر بينها برهنت على انه وسيلة من أفضل الوسائل وعامل من أقوى العوامل التى تسوق الانسان فى طرق الترقى والتقدم الى غايات السعادة . ولكنهم يرون ان ما يزعمه المسلمون اليوم ديناً وتسميه عامتهم بن وأغلب علمائهم بدين الاسلام قد اشتمل على أمور كثيرة من عقائد وعوائد وآداب موهومة لاعلاقة لها بالدين الحقيقى الطاهر وانما هى بدع ومحدثات الصقت به : فهذا الخليط الذى سماه الناس ديناً واعتبروه

اسلاماً هو المانع من الترقى .

وليس فى أمكان أحدأن ينكر أن الدين الاسلامى قدتحول اليوم عن أصوله الاولى وأن العلماء والفقهاء ـ الاقليلا ممن أنار الله قلوبهم ـ قدلعبوا به كما شاءت أهواؤهم حتى صيروه سخرية وهزواً وحقت عليهم كلمة الكتاب : « واتخذوا دينهم هزواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا »

ولكنى أعتقد أن هذا الانحطاط الذى طرأ على الدين ليس سبباً لماعليه المسلمون الآن وانما هو نتيجة لأمر : هو الجهل الفاشى فى المسلمين عامة رجالا ونساء

كان النبى صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه وأصحابه كلهم يخدمون الدين ويشتغلون بالدنيا فى آن واحد . وصرحت السنة كما أجمعت عليه الأئمة بان لاقوام للدين الابسلطة تحفظه . فلم يمض الا قرن واحد من عهد ظهور الاسلام حتى صار علم المسلمين يخفق على أعم أقسام العالم . ولم يكن الغرض من هذه الفتوحات العجيبة إكراه الناس على الأخذ بهذا الدين وانما كانوا يفتحون البلاد دفاعاً عن الحوزة وتوسيعاً لنطاق الملك والسلطة والانتفاع بالصناعة والتجاره . وهو المقصد الذى يعمل له الأوروبايون فى بلاد الشرق الآن

ثم لم يمض على ظهور الاسلام جيلان الا وقد أضاء الكون

بنور العلم التى نشرها المسلمون فى كل أرض احتلوها وبلد أقاموا به فلم يتركوا فرعا من العلوم ولا فناً من الفنون الا تعلموه وألفوا فيه وزادوا فيه حتى العرب - تلك الأمة الأمية التى ربما صح فيها قول ابن خلدون انها لا تصلح للمدنيه أبداً - اندفعت بقوة ذلك التيار وعامل تلك النهضة الى منافسة مواطنيهم فى خدمة العلم . وكانت هذه الحركة عامة فى كل ما يجول فيه الفكر ويمتد اليه النظر وتتناوله مدارك البشر : هذا يشتغل بعلوم الكلام . وآخر بالعلوم الطبيعية وثالث بالفلك والحساب . ورابع بالتاريخ والجغرافيا . وخامس بالفلسفة والاخلاق . ولم يهملوا الصناعات والتجارة فبنوا وشيدوا وامتلأت سفنهم بالصنائع تجرى فى البحار حول الارض . واستمر هذا الحال على ضرب من التفاوت بحسب الأزمان الى ان رزىء المسلمون بوقائع التاتار فى الشرق وانقراض الخلافة منه . وزالت دولة العرب من الأندلس وانتقلت العلوم الاسلامية الى أوروبا فرجع المسلمون الى حالة الجاهلية الأولى

ومن ذلك الحين انطفأ مصباح العلم من الشرق باجمعه واقتصر علماء الاسلام على النظر فى شىء من علوم الكلام وبعض شىء من قواعد اللغة وانصرفوا عن كل شىء سواها

ولما ساد الجهل على عقولهم وتراكمت ظلماته فى أذهانهم لم يعد

فى استطاعتهم أن يفهموا حقيقة الدين وشعروا أن ضعفهم لا يسمح لهم بان يصعدوا اليه بعقولهم فأنزلوه من مكانه الرفيع ووضعوه مع جهلهم فى مستو واحد . ثم أخذوا يتصرفون فيه تصرف الغبى الأحمق ! والجاهل كالطفل يغتر بنفسه ويعجب بمعارفه ويؤذى نفسه والناس معه

أنظر الى الجاهل تجده دائما يختار من فكرين أقلهما صوابا ومن طريقين أصعبهما ومن عملين أضرهما . ذلك لان الحق سواء كان فضيلة أو مصلحة يلتبس بالباطل ويخفى على الناظر فلا يراه الا بعيد النظر نافذ البصيرة فى مصائر الأمور وعواقبها ثم هو يحتاج فى الوصول اليه الى عناء يفر منه الجاهل الكسول وفيه حرمان من لذة حالية فى سبيل منفعة مستقبلة

ومن رأى علمائنا اليوم أن الاشتغال بشؤون العالم والعلوم العقلية والمصالح الدنيوية شىء لا يعنيهم . وصار منتهى علمهم أن يعرفوا فى إعراب البسملة ما يزيد من غير مبالغة على ألف وجه على الأقل وان سألتهم عن شىء من الاشياء المتداولة فى أيديهم كيف صنع أو عن حال الامة التى هم منها أو أمة أخرى تجاورهم أو الأمة التى احتلت بلادهم أين موقعها الجغرافى وما منزلتها من القوة والضعف . بل لو سألت الواحد منهم عن وظيفة عضو من أعضائه أو مكانه من بدنه ـ

هزوا أكتافهم ازدراء بالسائل والمسئلة واحتقاراً لهما . وان تكلمت معهم فى نظام حكومتهم الداخلى وقوانينها وحالتهم السياسية والاقتصادية وجدتهم لايدرون منها شيئاً . وسواء عاشوا فى العز أو فى الذل فهم على كل حال عائشون وبما ينحطون اليه راضون . ويرون أن ليس للانسان أن يعمل لمصلحة نفسه وأن يختار لها أمراً ويزعمون أنهم وكلوا جميع أمورهم الى مايجرى به القضاء . مع أنك يراهم أشد الناس احتيالا فى طلب الرزق من غير وجهه واحراصهم على حفظ مايجمعون من الحطام ونيل مايتوهمونه شرفاً ورفعة ولذلك ضرب المثل يتحاسدهم فيما بينهم فهم فى الحقيقة يريدون التخلص من مشقة العمل وانما يحتجون بالقدر تضليلا للعامة واقناعاً للسذج بأنهم فى تقصيرهم فى أداء مافرضته عليهم الشريعة مقهورون بقوة القضاء

ظن هؤلاء المساكين أنهم متى عرفوا كيف تستقيم العبارات وكيف تعذب الالفاظ بالاعراب والصرف عرفوا مافى الدين والدنيا والبعد بينهم وبين الدين الحقيقى عظيم

قال الاستاذ الشيخ محمد عبده فى بيان ماجاء به الاسلام كلاماً نأخذ منه مايناسب المقام هنا لأنه أحسن ما كتب فى هذا الزمان لتنبيه أفكار المسلمين:

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر أن لكل نفس

ما كسبت وعليها ما اكتسبت ,, فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ،،.,, وأن ليس للانسان الا ماسعى وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ماشاء أكلا وشرباً ولباساً وزينة . ولم يحظر عليه الا ما كان ضاراً لنفسه أو بمن يدخل فى ولايته أو ماتعدى ضرورة الى غيره . وحدد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة . فكفل الاستقلال لكل شخص في عمله واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعدلها عقبة تتعثر بها اللهم الا حقا محترماً تصطدم به

أنحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ونسفت ما كانت له من دعائم وأركان وفى عقائد الامم . وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومه طال عليه الغيب فيها كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خاصت اليه هينمة من سدنة هياكل الوهم نم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والازواد قليلة

علا صوت الاسلام على وساوس الطعام وجهر بان الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والاعلام أعلام الكون ودلائل الحوادث . وانما المعلمون منبهون ومرشدون

والى طرق البحث هادون

صرح فى وصف أهل الحق بانهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . فوصفهم بالتميز بين مايقال من غيره فرق بين القائلين ليأخذوا بماعرفوا حسنه ويطرحوا مالم يتبينوا صحته ونفعه. ومال على الرؤساء فانزلهم من مستو كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت انظار مرؤوسيهم يخبرونهم كمايشاؤون ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لابما يظنون ويتوهمون

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وماتوارثه عنهم الأبناء وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين باقوال السابقين ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسمياً لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان وانما السابق واللاحق فى التميز والفطرة سيان . بل اللاحق من علم الاحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون مالم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم طغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم « قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » . وأن أبواب فضل الله

لم تغلق دون طالب ورحمته التي وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب

عاب أرباب الاديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند مااختطته لهم سير أسلافهم وقولهم : بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا . انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون (١)

ومما يستحق ان نفرح له هو أن نفراً من علماء عصرنا فى مصر وفى غيرها من بلاد الاسلام شرقاً وغرباً يرون ما نرى ويقولون ما نقول ويعترفون بان العلوم التى نقرأ الآن فى الازهر وفى غيره لاتفيد إن لم تؤسس على الحقائق العلمية التى تهيء العقول لقبولها والأنتفاع بها

وفي الحقيقة أن علوم التوحيد والفقه لايمكن الانتفاع بها اذا لم يسبقها الالمام بالمعارف العامة والمبادىء العلمية . أليس التوحيد هو خاتمة العلوم كلها وخصة مجموعها ؟ أليس الفقه علم شريعة كل نفس فى ارتباطها بخالقها وفى معاملتها مع بقية البشر وكلاهما يحتاج الى معرفة علم النفس وتشريح الجسم ووظائفه والتاريخ والرياضة والعلوم الطبيعية وغيرها مما تسمو به الافكار ويرتقى به العقل ؟ أليس العلم فى الحقيقة واحداً يشبه شجرة ذات فرع وأفنان تتصل كلها بأصل واحد وتتغذى من جذر واحد وتخدم حياة واحدة وتنتج ثمرة واحدة

---

(١) رسالة التوحيد : صحيفة ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٢

هى معرفة حقيقية كل شىء فى الوجود

وما علينا الا أن نصغى لمقال هؤلاء العلماء الافاضل الذين هم أدرى منا بحاجات الدين ولايخفى عليهم شىء من حاجات الدنيا وان نعضدهم فى مشروعاتهم الصالحة ليستيقظ الدين من نومته الطويلة ويذلل العقابات ويتغلب على المصائب التى أقامها أهله فى طريقه

ولاحاجة بنا الى التطويل فى شرح أمر صار معلوما عند الكل وهو انحطاط الدين اليوم فى جميع مظاهره حتى فى العبادات وانما أردنا أن نبين أن انحطاط الدين تابع لانحطاط العقول وأن العلة الأولى التى هى مصدر غيرها من العلل التى حالت بيننا وبين الترقى هى اهمال التربية فى الرجال وفى النساء معاً

فان استمر ذلك السبب لم يصلح للامة حال بل يستمر كل أمر على حاله : والدين أيضاً . وان زال ذلك السبب صلح حال الأمة فى جميع مظاهر حياتها العقلية والادبية وصلح معها الدين أيضاً

أما تربية الرجال تصلح شأن الأمة وتقوم أعوجاجها فهذا مما صار معروفاً عند كل أحد مسلماً عند الجميع . وأما وجوب تربية المرأة أيضاً فلايزال محتاجاً الى البيان

المرأة لاتكون خلقاً كاملاً الا اذا تمت تربيتها الجسمية والعقلية أما تربيتها الجسمية فلانها لازمة لها فى استكمال صحتها وحفظ جمالها

فيجب أن تربى كما يجب أن تربى الرجال على تمرين الجسم بالحركة والرياضة لان الجسم الضعيف لا يسكنه الا عقل ضعيف ولان ما يكثر عروضه للنساء من الاضطرابات العصبية والمخية انما هو ناشيء عن عدم انتظام وظائف أعضاء الجسم

فسلامة العقل فى جميع مظاهره تابعة لسلامة الجسم . وهذا هو السر فى تقدم الجنس الانكليزى السكسونى على غيره ويرى فى الكتاب الذى ترجمه صديقى احمد فتحى بك زغلول من اللغة الفرنساوية الى العربية [1] كيف أن نشاطهم وجراءتهم وأقدامهم وتبصرهم وفطنتهم وجميع الصفات التى تعترف كل الامم بامتيازهم فيها عن سواهم هما نتيجة لعب الكرة والسباحة وركوب الخيل والحرية والاستقلال فى الاعمال مماله دخل كبير فى تربية أطفالهم ذكوراً وأناثاً . ولهذا بدأ الفرنساويون وغيرهم فى تقليدهم لأنهم أدركوا أن تربية العقل التى اعتنوا بها لا تثمر ثمرتها الا اذا صحبتها تربية الجسم . واذا تذكر القارىء ماسبق بيانه من ان الولد يرث من أبويه خصوصاً من أمه الحالة الجسمية والعقلية التى تكون عليها مدة حمله يعلم مقدار ما تستفيد المرأة والرجل والهيئة الاجتماعية كلها من الاعتناء بصحة المرأة

---

(١) سر تقدم الانكليز السكسونين

واما تربيتها العقلية فلا نهابدونها تكون المرأة فاقدة لقيمتها كما هى حالتها الآن عندنا . نعم انها تلد ويحفظ بها النوع الانسانى . لكنها فى ذلك انما تؤدى وظيفة . كل أنثى من سائر انواع الحيوانات وهى لا تمتاز فى عملها هذا عن نحو هرة ولود

وفى الحق اننا ضيقنا دائرة وظيفة المرأة وخصصناها بالنتاج ولم نطلب منها شيئاً غير ذلك . وسببه أننا توهمنا أن المرأة لا تصلح العمل آخر وان الرجال غير محتاجين للنساء فى القيام بشؤون الحياة الخاصة والعامة وغاب عنا أن الرجل انما يكون فى كبره كما هيأته والدته فى صغره

فهذا الارتباط التام بين الرجل وأمه هو الأمر المهم الذى أريد أن يفهمه الرجال . وهو ثمرة كل ماوضعته فى هذا الكتاب

انى أكرر ماقلته من أنه يستحيل تحصيل رجال ناجحين إن لم يكن لهم أمهات قادرات على أن يهيئنهم للنجاح . فتلك هى الوظيفة السامية التى عهد التمدن بها الى المرأة فى عصرنا هذا وهى تقوم باعبائها الثقيلة فى كل البلاد المتمدنة حيث نراها تلد الأطفال ثم تصوغهم رجالا

وبديهى أن العمل الأول وهو الولادة هو عمل بسيط مادى تشترك فيه المرأة مع الحيوانات فلا يحتاج الا الى بنية سليمة . أما

العمل الثانى وهو التربيـة فهو عمل عقلى امتاز به النوع الانسانى وهو محتاج فى تأديته الى تربية واسعة واختبار عظيم ومعارف مختلفة

والأمر الذى يلزم أن تلتفت اليـه كل أمـة لاتغفل عن مصالحها الحقيقية هو وجود النظام فى العائلات التى يتكون منها جسم الأمـة لان العائلة هى أساس الأمة . ولما كانت المرأة هى أساس العائلة كان تقدمها وتأخرها فى المرتبة العقلية أول مؤثر فى تقدم الأمة وتأخرها

المرأة ميزان العائلة . فان كانت منحطة احتقرها زوجها وأهلها وأولادها وعاشوا جميعاً منحلين لايرتبط بعضهم ببعض ولا يعرفون نظاماً ولا ترتيباً فى معيشتهم فتفسد آدابهم وعوائدهم . أما ان كانت المرأة على جانب من العقل والأدب هذبت جميع العائلة واحترمها أفرادها واحـترموا أنفسهم وعاش الجميع فى نظام تام تحت لواء محبتها متضامنين أقوياء باتحادهم وهذه الصفات التى تشاهد فى العائلة هى الصفات التى تشاهد فى الأمة إذ كل منا يسلك فى أمته مسلكه فى عائلته . ومن المحال أن يكون للانسان من الصفات والاخلاق فى أمته ماليس له نموذج فى منزله . وأن يعامل مواطنيه باخلاق غير التى يعامل بها أفراد عائلته . فان كان حسن الاخلاق فى عائلته كان كذلك فى أمته وان كان سيء الأخـلاق فى عائلته ساءت

أخلاقه فى أمتـه أيضاً . ومن هذا يتبين مقدار عمـل المرأة فى تقدم الأمم وتأخرها

وبالجملة فان ارتقاء الامم يحتاج الى عوامل مختلفة متنوعة من أهمها ارتقاء المرأة . وانحطاط الامم ينشأ من عوامل مختلفة متنوعة أيضاً من أهمها انحطاط المرأة

فهذا الانحطاط فى مرتبة المرأة عندنا هو أهم مانع يقف فى سبيلنا ليصدنا عن التقدم الى ما فيـه صلاحنا . وعلى هذا فليست تربية المرأة من الكماليات التى ينتظر بها مرور الازمان ويجوز الأبطاء فى أعـداد الوسائل لها كما يتوهمه كثير من الناس الذين يطنطنون بمزايا تربية الذكور ويقدمونها على تربيـة البنات . وانما هى من الحاجيات بل من الضروريات التى يجب البدء بهـا والعناية بتوفير مايلزم لها من المعـدات . وهى الواجب الخطير الذى إن قمنا به وسهل علينا كل اصـلاح سواه وان أهملناه أفسد علينا كل اصلاح سواه

دلت التربية الجديدة التى منحها نساء أوروبا من نحو قرن على إن المرأة ليست تلك الالة البسيطة التى وقفها أولئك الاسـلاف الغافلون على التناسل . فبمجرد ماحل العقل محل القوة وحلت الحرية محل الاستبداد رأى العالم أن فى المرأة اسراراً لم تعرفها الجاهلية

الاولى وأنها تصلح لوظائف سامية مثل التى يصلح لها الرجال وأن انحطاطها كان عارضياً لا طبيعياً . فلما استيقظت من نومها واستنار عقلها واستقامت ملكتها وتحلت نفسها بالفكر والعلم ومرنت قواها على العمل صعدت من العقل الى درجة وذهبت فى رقة الشعور الى غاية لم تكن تخطر فى خيال أحد من أهل تلك العصور الخالية . وهى الى الآن كلما تمتعت بحريتها زاد ارتقاؤها

كل مطلع على حركات النساء الغربيات وأعمالهن لا يشك فى أنهن يأتين من الاعمال العظيمة مالا قوام للمدنية بدونه : لا يوجد فرع من فروع الصناعة والتجارة ولا علم من العلوم ولا فن من الفنون الا والمرأة عامله فيه مع الرجال كتفاً لكتف ولا يوجد عمل خيرى الا وهى فى أول العاملين فيه . ولا تقع حادثه سياسية الا وللمرأة نصيب فيها . وليس بين الصنفين فرق الا أن المراة لم تنل الحقوق السياسيه فاذا منحتها كما هو المنتظر فى بلاد أوربا تمت المساواة بينهما . على أنها قد نالت منها الآن شيئاً كبيراً حيث خول لها حق الانتخاب فى أمريكا وفى انكلترا فى المجالس البلدية وفى فرانسا فى المحاكم التجارية وفى بعض ممالك الولايات المتحدة تجلس المرأة فى المجالس الشورية . ولا تخلو اليوم عاصمة من عواصم أوربا وامريكا من جمعية للنساء همها أن تطالب بحقوق المرأة والسعى فى سبيل

اكتسابها . وكل سنة تمر تترك فى تاريخ أعمالهن أثراً شريفاً وتنتهى بفوز جديد

ولايشك أحد من الواقفين على هذه الحركة التى أظهر فيها هذا الصنف الضعيف قوة عجيبة ان المرأة لابد أن تصل فى زمن قريب الى مستو تبلغ فيه منتهى ماتطلب من مساواتها للرجال فى جميع الحقوق . ولايعلم ماذا يكون بعد ذلك الاالله وهل يقف النساء عند هذا الحد أويسبقن الرجال فى ميدان التقدم والترقى

ومن البديهى أن هذه القوى التى تصرفها النساء فى التجارة والصناعة والفنون والعلوم وان كانت كل واحدة منها على حدتها لايظهر أثرها للناظر فى أحوال الأمة ولكن لجميعها مجموع واحد يظهر أثره فى أحوالها تمام الظهور . وهى رأس مال عظيم نحن مقصرون فى العناية والانتفاع به

وعندى أن من أعظم مايؤسف عليه حرمان بلادنا من أعمال النساء الخيرية . لأن الميل الى الخير من غرائز المرأة الفطرية ويقودها اليه رقة الاحساس وحنو القلب . ولها من الصبر على خدمة الفقراء والمرضى مالايتحمله أعظم الرجال جلداً . ولها اعتناء جميل واندفاع قلبى وهذه الصفات توجد عند النساء فى الغالب . غير أن المرأة الجاهلة لاتجد من نفسها مرشداً يهديها الى سبيل الخير فتصرف ماأودعه

قلبها من كنوز الرحمة فى أصغر الأمور وأحقرها

هذا هو عمل المرأة فى الامم المتمدنة وقد وجد فى مبدأ الاسلام عدد غير قليل من النساء كان لهن أثر فى مصالح المسلمين العامة فجميع المسلمين يعلمون أن طائفة عظيمة من الأحاديث النبوية على اختلاف مواضيعها قد رويت عن عائشة وأم سلمة وغيرهما من أمهات المؤمنين ونساء الصحابة . وأن عدداً غير قليل من النساء اشتهرن بخدمة العلم وجودة الشعر . وأن عائشة تداخلت فى مسئلة الخلافة العظمى وكانت رئيسة لحزب المعارض لاحد الخلفاء . وانى أورد هنا بعض ماخطبت به على الناس تحملهم على الانضمام الى الطائفة التى كانت قد انحازت اليها وهى الخطبة التى القتها عند دخولها البصرة

ان الغوغاء من أهل الامصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدثوا فيه الاحداث وآووا فيه المحدثين واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع مانالوا من قتل امام المسلمين (عثمان) بلاترة ولاعذر . فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام . ومزقوا الأعراض والجلود وأقاموا فى دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين لايقدرون على امتناع ولايأمنون . فخرجت فى المسلمين أعلمهم ماتى هؤلاء القوم ومافيه الناس وراءنا وماينبغى

لهم أن يأتو فى اصلاح هذا وقرأت : (لاخير فى كثير من نجواهم الامن أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس) نهض فى الاصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر والأنثى فهذا شأننا الى معروف نأمركم به ونحضكم عليه . ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره »[1]

ويروى عن أم عطية أنها قالت : (وغزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات وكنت أخلفهم فى رحالهم وأضع لهم الطعام وأداوى الجرحى وأقوم على المرضى

والذى يقرأ هذه الاسطر يتخيل له أنه يرى امرأة غربية من الممرضات اللاتى وهبن حياتهن لخدمة الانسانية

والناظر فى الاحوال التى فضلت فيها شريعتنا الرجل على المرأة مثل الخلافة والامامة والشهادة فى بعض الاحوال لايجد واحدة منها تتعلق بعيشتها الخصوصية وحريتها . وأن الشارع لم يراع فى هذه المسائل القليلة الاعدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها فى العائلة وحصر الوظائف العمومية فى الرجال . وهو تقسيم طبيعى جرى على مقتضاه الى الآن التمدن فى أوربا ولا يوجد فيه شىء يمنع من ترقية المرأة والوصول بها الى أعلى مرتبة تستحقها . ومامن عاقل يدرك

---

(١) تاريخ الطبري جزء سادس صحيفة ٣١١٦

الغرض الصحيح من تلك الحقوق العظيمة التى خولتها الشريعة الاسلامية الى المرأة فى جميع الاعمال المدنية - ومنها أهليتها هادى تكون وصية على رجل - يستحسن مايخالفها من عوائدنا التى تؤلان الى حرمان المرأة بالفعل من استعمال هذه الحقوق

والقارىء الذى يتبع سلسلة القواعد الكلية التى سردتها بغاية الايجاز لابد أن يكون قد لاحظ أنها كلها تتلخص فى عبارة واحدة : هى أنه لابد لحسن حال الأمة من أن تحسن حال المرأة . فاذا أرسل الناظر فكره ليحيط بأطراف هذا الموضوع الواسع وبجميع مايرتبط به من المسائل انجلت له الحقيقة وتجلت له بجميع أسرارها فيرى صورة لاتشابه الخيال الذى كان يظنه جسما . يرى المرأة التى يهيئها المستقبل تتلألأ فى أنوار جمالها ظاهرة مظهرها الفطرى ولابسة حلة كمالها النسائى : الجسم والعقل

﴿ العائلة ﴾

لايتم اصلاح حال المرأة بمجرد التربية وحدها بل يحتاج الى تكميل نظام العائلة . نعم أن ارتقاء مدارك المرأة مما يساعد على كمال نظام العائلة ولكن هذا النظام نفسه على مابه من الارتباط بالعوائد والاحكام الشرعية له هو الآخر دخل كبير فى ارتقاء المرأة وانحطاطها . ولهذا رأينا من الضرورى استلفات الذهن الى أهم المسائل

التى تمس بحياة العائلة وهى الزواج وتعدد الزوجات والطلاق .
وسنتكلم عليها باختصار على هذا الترتيب

١ ـ الزواج

رأيت فى كتب الفقهاء أنهم يعرفون الزواج بانه « عقد يملك به الرجل بضع المرأة » وما وجدت فيها كلمة واحدة تشير الى أن بين الزوج والزوجة شيئاً آخر غير التمتع بقضاء الشهوة الجسدانية . وكلها خالية عن الاشارة الى الواجبات الأدبية التى هى أعظم ما يطلبه شخصان مهذبان كل منهما من الآخر

وقد رأيت فى القرآن الشريف كلاماً ينطبق على الزواج ويصح أن يكون تعريفاً له ولا أعلم أن شريعة من شرائع الامم التى وصلت الى أقصى درجات التمدن جاءت باحسن منه . قال الله تعالى : ,, ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ،، . والذى يقارن بين التعريف الأول الذى فاض من علم الفقهاء علينا والتعريف الثانى الذى نزل من عند الله يرى بنفسه الى أى درجة وصل انحطاط المرأة فى رأى فقهائنا وسرى منهم الى عامة المسلمين . ولا يستغرب بعد ذلك أن يرى المنزلة الوضيعة التى سقط اليها الزواج حيث صار عقداً غايته أن يتمتع الرجل بجسم المرأة ليتلذذ به وتبع ذلك ماتبعه من الاحكام الفرعية التى رتبوها على

هذا الاصل الشنيع

فهذا النظام الجميل الذى جعل الله أساسه المودة والرحمة بين الزوجين آل أمره بفضل علمائنا الواسع الى أن يكون اليوم آلة الاستمتاع فى يد الرجل وجرى العمل على اهمال كل مامن شأنه أن يوجد المودة والرحمة وعلى التمسك بكل مايخل بهما :

فمن دواعى المودة أن لايقدم الزوجان على الارتباط بعقد الزواج الا بعد التأكد من ميل كل منهما للآخر . ومن مقتضى الرحمة أن يحسن كلاهما العشرة مع بعضهما . ولكن لما غفلنا عن معنى الزواج الحقيقى الشرعى استخففنا به وتهاونا بواجباته وكان من نتائج ذلك أن يتم عقد الزواج قبل أن يرى كل من الزوجين صاحبه

بينا فيما سبق أن جميع المذاهب فى اتفاق على أن نظر المرأة المخطوبة مباح لخاطبها وذكرنا حديثاً عن النبى صلى الله عليه وسلم أمر به أحد الانصار ان ينظر الى خطيبته وهو قوله ,, انظر اليها فانه احرى ان يؤدم بينكما ،، . فما بالنا اهملنا هذه النصيحة على ما فيها من الفائدة مع أننا نتمسك بغيرها مما يقل عنها فى الأهمية ؟ — ذلك لان الجاهل من عادته أن يميل الى مايضره وينفر مما ينفعه

كيف يمكن لرجل وامراة سليمى العقل قبل ان يتعارفا أن يرتبطا بعقد يلزمهما أن يعيشا معاً وان يختلطا كمال الاختلاط ؟ أرى

الواحد عن عامة الناس لا يرضى أن يشترى خروفاً أو جحشا قبل أن يراه ويدقق النظر فى أوصافه ويكون فى أمن من ظهور عيب فيه . وهذا الانسان العاقل نفسه يقدم على الزواج بخفة وطيش يحار أمامها الفكر !

لعلك تقول أن المرأة ترى خطيبها من الشباك مراراً وأن الرجل يعرف بواسطة أمه أو أخته أوصاف خطيبته مثل سواد شعرها وبياض خدودها وضيق فمها واعتدال قوامها ورزانة عقلها وما أشبه ذلك فيكون عنده علم بما هى عليه من جمال وشمائل . — نقول هذا قد يكون . ولكن كل هذه الصفات متفرقة لا تفيد صورة ما ولا يمكن أن ينبعث عنها ميل الى طلبها لتكون عشيرة تطمئن لصحبتها النفوس وتتعلق بها وبنسلها الآمال . وانما الذى يهم الانسان البصير هو أن يرى بنفسه خلقاً حياً يفتكر ويتكلم ويفعل . خلقاً يجمع الشمائل والصفات مايلائم ذوقه وينفق مع رغباته وعواطفه

كثيراً مايرى الواحد شخصاً لم يكن رآه قبل ذلك وبمجرد ما يقع عليه نظره تنفر منه نفسه فى الحال نفوراً تاماً ولا يعلم لذلك سبباً وربما يستقبح الناظر شخصاً على بعد ولكنه متى دنا منه وفاض الحديث بينهما تبدل منه ماوجد عنه أولا بضده وربما زين لأول نظرة منك صورة يظهر عليها بهاء الجمال حتى اذا دنوت منها تبدل

ذلك الاحساس بضده لاول كلمة تصدر منها وخصوصاً أن هـذا الاحساس المادي سواء كان ميلا أو نفوراً لا يتعلق بجمال وقبح المنظر ولا يحس به جميع الناس على طريقة واحدة. فان الانسان الواحد يكون منظره سبباً للنفور عند شخص والميل عند شخص آخر :

فهذه الجاذبة الحسية لابد منها عند الزوجين . وهى ان لم تكن ضرورية بين رجل وامرأة يطلبان الزواج مع بعضهما فلا أرى فى أى شيء آخر تكون لازمة

على أن الانجذاب المادى ليس كافياً فى الزواج بل يلزم أن يوجد أيضاً توافق بين نفوس الزوجين . أى أنه يوجد ـ لا أقول اتحاداً لانه مستحيل ـ وانما ائتلاف بين ملكاتهما واخلاقهما وعقولهما ولا تتأتى معرفة وجود هذا التوافق وعدم وجوده الا إذا خالط كل منهما صاحبه ولو قليلا

ولا يختلف اثنان فى أن الزواج الذى يبنى على هذا التوافق يكون أمراً محترماً فى نفوس الزوجين وتكون عقدته من المتانة بحيث لا يسهل انحلالها ويكون أيضا موجباً للعفه والتصون. وعندى أن كل زواج لا يؤسس على هذا الائتلاف فهو صفقة خاسرة لا خير فيها لأحد من الزوجين مهما طال أجل الزواج ومهما كانت صفات الرجل والمرأة . ولهذا قال الأعمش : « كل تزويج يقع على غير

نظر فأمره هم وغم »

ولما كان الزواج لايراعى فيه اليوم هذا الشرط كانت الرابطة بين الزوجين واهية العقد تنحل لأول عرض يطرأ عليها . وأغلب مايكون من ذلك لاسبب له الارغبة كل منهما فى الخروج من قيد لايرى وجهاً للمحافظة عليه والتنصل من أمر لاقيمة له فى نفسه .

وكل ذى ذوق سليم يرى من الصواب أن يكون للمرأة فى انتخاب زوجها ما للرجل فى انتخاب زوجته فانه أمر يهمها اكثر مما يهم ذوى قرابتها . اما حرمانها من النظر فى كل مايختص بزوجها وقصر الرأى فى ذلك على أوليائها دون مشاركة منها لهم فهو بعيد عن الصواب

قضت العادة عندنا أن يجتنب الحديث مع البنت فيما يتعلق بالرجل الذى خطبها فلا يصلها خبر عن صفاته وأخلاقه ولا تسأل هل تحب الاقتران به ولا يبحث أحد عن ذوقها ورغبتها وميلها وهى لاتجد من نفسها جراءة على أن تبدى مافى ضميرها . ويرى الناس أنه لايليق بالمرأة أن يكون لها صوت فى أهم الأشياء لديها فيعطى القريب أو البعيد رأيه فى زواجها ماعداها ويظنون أن هذا من تمام فضيلة الحياء وكمال الأدب وهم مخطئون فيما يظنون

منحت شريعتنا السمحاء الى النساء حقوقاً لاتنقص عن حقوق

الرجل فى الزواج . مالها الحق مثله فى أن تتأكد بنفسها من امكان تحقيق آمالها . وما علينا الا نسمع صوت شريعتنا ونتبع أحكام القرآن الكريم وما صح من سنة النبى صلى الله عليه وسلم واعمال الصحابة لتتم لها السعادة فى الزواج

جاء فى الكتاب العزيز :« ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » وكان ابن عباس يقول اتباعاً لهذه الآية الكريمة :(أنى أحب أن أتزين لامرأتى كما أحب أن تتزين لى) وقال تعالى : (وعاشروهن بالمعروف » وقال فى تعظيم حقهن : (وأخذن منكم ميثاقاً غليظا) وجاء عن النبى صلى الله عليه وسلم : (أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقاً وألطفهم باهله) . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحب النساء كما ورد فى الحديث : (حبب الى من دنياكم ثلاث . النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة) وكان يحترم النساء احتراماً برهن للعالم على حسن خلقه حتى أنه كان يضع ركبته على الارض لتضع زوجته عليها رجلها اذا أرادت أن تركب . وكان يتنازل الى ملاعبتهن وممازحتهن حتى روى أنه كان يسابق عائشة رضى الله عنها فسبقته يوماً وسبقها فى بعض الايام فقال : (هذه بتلك) . وكان يرأف بالنساء وفى هذا الموضوع كثيرة كلها تدل على أن الدين الاسلامى يحث على اعتبار المرأة واحترام حقها ومعاملتها بالاحسان والمعروف

ولكن مادامت المرأة على ماهى عليه اليوم من الجهل فالزواج لايكون - كما هو الآن - إلا شكلا من الاشكال العديدة التى يستبد بها الرجل على المرأة

أما إذا تعلمت المرأة حقوقها وشعرت بقيمة نفسها عند ذلك يكون الزواج الواسطة الطبيعية لتحقيق سعادة الرجل والمرأة معاً عند ذلك تؤسس الزوجة على انجذاب شخصين يحب أحدهما الآخر حباً تاماً بجسمهما وقلبهما وعقلهما . عند ذلك تعيش المرأة تحت حكم عقلها فتنتخب من بين الرجال من تحبه وتميل اليه وترتبط به بعقد الزواج ويعرف أهلها أن فى كمال عقلها مايكفى لحسن أختيارها فيكونون معها على اتفاق فى الرأى فلا تخشى غضبهم ولا انتقاد الناس عليها . عند ذلك يعرف الرجال قيمة النساء ويذوقون لذة الحب الحقيقى

أنظر الى زوجين متحابين تجدهما من اليوم فى نعيم الجنة ماذا يهمهما أن يكون الصندوق خالياً من المال أو أن يكون على المائدة عدس وبصل ؟ أما يكفيهما فرح القلب فى كل دقيقة تمر من اليوم : هذا الفرح الذى يبعث النشاط فى الجسم والطمأنينة فى النفس ويحيى فى القلب شعوراً بلذة الحياة ويزينها له ويخفف ثقلها عليه ويجعلها منه فى مكان الرضى حتى قال عمر بن الخطاب : « ماأعطى العبد بعد الايمان خيراً من امرأة صالحة »

أين هذا من حال عائلتنا اليوم التى نرى فيها الزوجين وأحدهما أبعد الناس عن الآخر . ولولم يكن الا هذا البعد لخلف احتماله . ولكن لما كان فى طبيعة الانسان أن يجرى وراء سعادته كان كل من الزوجين يعتقد أن صاحبه هو الحجاب الحائل بينه وبينها. ومن هذا الاعتقاد يتكون فى المنزل جو مشحون بالغيام والكهرباء يعيش فيه كل منهما وقلبه ملآن بعيوب الآخر . وتبدو فيه المناقشات والمخاصمات فى كل آن بسبب وبغير سبب فى الصباح وفى المساء حتى وفى الفراش

تنتهى هذه الحالة بأن تتخلى المرأة عن بيتها الى الخدم يفعلون فيه مايشأون . فيستولى الاختلال على مافيه وتظهر فيه آثار الاهمال فيبدو للناظر اليه كأنه غير مسكون بأهله ويعلو التراب فراشه والقذر موائده وتغفل شؤون الزوج والأولاد فى مأكلهم ومشربهم وملابسهم وتقضى الزوجة أوقاتها فى مكان واحد تفكر فى سوء ماوصلت اليه أو تترك منزلها من الصباح وتطوف على جاراتها لتفرج عن نفسها الهموم

وليس الرجل بأحسن منها حالا : فانه يهجر منزله ويستريح الى العيش فى القهاوى أو عند جيرانه . فاذا رجع الى بيته طلب العزلة عن زوجته والتزم السكوت

نتج مما تقدم أن الزواج على غير نظر كما هو حاصل الآن انما هو

طريقة يستعملها الرجل فى الغالب للاستمتاع بعدد من النساء يدخلن فى حيازته دفعة واحدة أو على العاقب ولاتجد فيه المرأة مزية ترضى نفسها .

وكل رجل يقصد من الزواج أن تكون له صاحبة تشاركه فى السراء والضراء يصعب عليه بل قد يتعذر أن يبلغ مابريد من ذلك ولهذا السبب رأينا فى هذه السنين الأخيرة كثيراً من الشبان القادرين على الزواج لايرغبون فيه . ولما كان عدد الرجال المهذبين يزداد فى كل سنة ـ لان الشعور بوجوب تربية البنين تقدم وسيتقدم كثيراً فى المستقبل ـ صارت تربية المرأة على مبدأ التعليم والحرية أمراً ضرورياً لايستغنى عنه والا فما علينا الا أن نعلن أن الثقة بالزواج قد فقدت وأن المعاملة به قد بطلت وحق عليه الافلاس

ولست مبالغاً أن قلت أن رجال العصر الجديد يفضلون العزوبة على زواج لايجدون فيه أمانيهم المحبوبة . فانهم لايرضون الارتباط بزوجة لم يروها وانما يطلبون صديقة يحبونها وتحبهم لاخادمة تستعمل فى كل شىء . ويطلبون أن تكون أم أولادهم على جانب من العلم والخبرة يسمح لها بتربية أولادها على مبادىء الاخلاق الحسنة وعوقد الصحة .

واكل من تجرد من التعصب وحب التمسك بالعوائد القديمة

لابد أن ينشرح صدره عندمايرى نمو هذا الميل فى نفوسهم ويرى من نفسه وجوب الاصغاء الى مقالهم والنظر فى مطالبهم فلايستهجنها لأول وهلة ولايرميهم بالتفرنج فى آرائهم قبل البحث فيها . بل يزنها بميزان العقل والشرع ومتى ثبت له أن هذا التغيير الذى نطلبه ليس الا رجوعاً فى الحقيقة الى أصول الدين وعوائد المسلمين السابقين وأنه اصلاح يقضى به العقل السليم لايتأخر عن مساعدتهم على تأييدها .

٢ ـ تعدد الزوجات

تعدد الزوجاب هو من العوائد القديمة التى كانت مألوفة عند ظهور الاسلام ومنتشرة فى جميع الانحاء يوم كانت المرأة نوعاً خاصاً معتبرة فى مرتبة بين الانسان والحيوان وهو من ضمن العوائد التى دل الاختيار التاريخى على أنها تتبع حال المرأة فى الهيئة الاجتماعية فتكون فى الأمة غالبة عندما تكون حال المرأة فيها منحطة وتقل أو تزول بالمرة عند ماتكون حالها مرتقية . اللهم الا اذا كان التعدد لاسباب خاصة قضت به عند فرد أو أفراد مخصوصين فتقف عندهم وتقدر بقدرهم حتى فى الأمة التى ألف تعدد الزوجات فيها نرى الرجل اذا بلغ من كمال العقل مايشعر معه بمنزلة زوجته من أهله وأولاده وعرف أن من حقوقها أن تكون فى المرتبة التى

تستحقها بمقتضى الشرع والفطرة مال الى الاكتفاء بالواحدة من الزوجات ويمكن الاستدلال على ذلك بما نشاهده ولا نظن أحداً ينازعنا فيه من أن هذه العادة خفت فى بعض الطبقات من أهل بلادنا عما كانت عليه من قبل عشرين أو ثلاثين سنة

نعم أن من منع الرقيق كان له أثر محمود فى هذه العادة حيث قطع ورود الجوارى التى كانت تملأ بيوت أكابر القوم وأعيانهم. ولكن يظهر لى أن ترقى عقول الرجال وتهذب نفوسهم له أثر مهم أيضاً فى تلاشيها . ذلك لان الرجل المهذب لا يرضى معاملة المرأة بالاستبداد ولا تطاوعه مروءته ان همت شهوته بامتهانها .

وبديهى أن فى تعدد الزوجات احتقاراً شديداً للمرأة لانك لا تجد امرأة ترضى أن تشاركها فى زوجها امرأة أخرى كما أنك لا تجد رجلا يقبل أن يشاركه غيره فى محبة امرأته وهذا النوع من حب الاختصاص طبيعى للمرأة كما أنه طبيعى للرجل . ولو سلم أنه ليس بطبيعى كما ذهب الى ذلك قوم استشهدوا على رأيهم بمثل الديك الواحد الذى يعيش بين العشرات من الدجاج فاقل مافيه أنه ميل مكتسب بلغ من النفس الانسانية بالعادة والتوارث مبلغ جميع الكمالات التى تولدت فى نفوس أفراد هذا النوع عند ارتقائه من أدنى درجاته من الحيوانية الى ما أمد له من الكمال الانسانى . فهذا

الاختصاص بما كسبه من التأصل فى الأنفس والرسوخ فيها لا يقل أثره عن أثر الغرائز الفطرية

وعلى كل حال فكل امرأة تحترم نفسها تتألم اذا رأت زوجها ارتبط بامرأة أخرى اذ لا يخلو حالها من أحد أمرين أما أن تكون مخلصة فى محبتها لزوجها فتلتهب نيران الغيرة فى قلبها وتذوق عذابها. وأما أن لا تكون كذلك لكنها راضية بعشرته لسبب من الاسباب فهى مع ذلك ترى لنفسها مقاماً فى أهله فاذا ارتبط بأخرى سواها قاست من الألم ما يبعثه احساسها بان ذلك المقام الذى كان باقياً لها قد انهدم ولم يعد لها أمل فى بقاء شيء من كرامتها عنده . فالأمل لاصق بها على كل حال

وان قيل ان التجارب دلت على امكان الجمع بين امرأتين أو أكثر مع ظهور رضاء كل منهن بحالتها . فالجواب عنه من وجهين: الأول ان ما يدعى من رضاء كل منهن بحالها فليس بصحيح الا فى بعض أفراد نادرة لا حكم لها فى تقدير حال أمة وان وقائع المنازعات بين النساء وأزواجهن والجنايات التى تقع بينهم مما لا يكاد يحصى . وهو شاهد على أن تعدد الزوجات مثار للنزاع بينهن وبين ضرائرهن وبين أزواجهن ومصدر لشقاء الأهل والأقارب . فمن يدعى أن نساءنا يرضين بمشاركتهن فى أزواجهن ويعشن مع

ذلك باطمئنان قلب وراحة بال فهو غير عارف بما عليه حالة النساء في البيوت

والثاني أن ما يكون من ذلك الرضاء في القليل النادر ناشيء عن أن المرأة انما تعتبر نفسها متاعاً للرجل فله ان يختص بها وله أن يشرك معها غيرها كيفما شاء . وليس لها على هواه حتى تطالبه به. كما كان الرجال عندنا يعتبرون أنفسهم متاعاً للحكام في عهد ليس بعيداً عنا

ويظهر لي أن رجلا مهذباً عارفاً بما يفرضه عليه الشرع والعدل لا يطيق النهوض بما يضعه على عاتقه الجمع بين امرأتين

قدمنا أن في فطرة المرأة ميلا الى التسلط على قلب الرجل فاذا رأت بجانبه امرأة أخرى في فطرتها ذلك الميل ويمكنها أن تبلغ منه بضروب الوسائل ما تشهى تولاها الاضطراب والقلق وهجرتها الراحة وكانت حياتها عذاباً اليما . وتلك الحال لا تخفى على الرجل المهذب . فكيف يمكن ان تطيب نفسه بمشهد ذلك العذاب الأليم ؟

ويزيد النساء قلقاً واضطرابا ما صرح به الفقهاء من انه لا يجب على الرجل أن يعدل في محبته بين نسائه وانما طلبوا العدل في النفقة وما شاكلها

ولا ريب في أن شقاء المرأة بهذه الحال يكون له أثر شديد

فى نفس الرجل المهذب حيث يشعر دائماً بانه هو السبب فى هذا الشقاء .

ثم أن الأولاد من أمهات مختلفات ينشؤن بين عواصف الشقاق والخصام فلا يجدون مايساعد غرائزهم على تمكين علائق المحبة بينهم . بل يجدون مايعاكس تلك الغرائز وينمى فى نفوسهم البغضاء ولا يستطيع أحد أن يحول بين مايشهدون من تخاصم أمهاتهم بعضهن مع بعض وتخاصمهم مع والدهم فيأثر ذلك فى نفوسهم . بل يسرى فى أفئدتهم سم الغش والخدعة والشر ويظهر أثر كل ذلك عند الفرصة : مثلهم كمثل الممالك الأوروباوية تظهر بحالة السلم وهى تأخذ أهبتها للحرب حتى اذا حانت الفرصة وثب كل منهما على الآخر فمزق بعضهم بعضاً كما نشاهده فى أغلب العائلات

أين هذا من منظر عائلة متحدة يعيش فيها الأولاد فى حضن والديهم . تجمعهم محبة صادقة . لا يتنافسون الا فى زيادة الحب ولا يتسابقون الا إلى الخير يصل من بعضهم لبعض يربطهم ميثاق غليظ جعلهم كأعضاء جسم واحد ان فرح أحدهم فرحوا معه وان بكى بكوا معه . هم سعداء الدنيا فى كل حال أسبغ الله عليهم أكبر نعمة يتمناها العاقل وهى المودة فى القربى

فلا ريبة بعد هذا أن خير مايعمله الرجل هو انتقاء زوجة

واحدة . ذلك ادنى أن يقوم بما فرض عليه الشرع فيوفى زوجته وأولاده حقوقهم من النفقة والتربية والمحبة وأقرب الى الوصول الى سعادته .

ولا يعذر رجل يتزوج أكثر من امرأة : اللهم الافى حالة الضرورة المطلقة كأن أصيبت امرأته الأولى بمرض من لايسمح لها بتأدية حقوق الزوجية . أقول ذلك ولاأحب أن يتزوج الرجل بامرأة أخرى حتى فى هذه الحالة وأمثالها حيث لاذنب للمرأة فيها. والمروءة تقضى أن يتحمل الرجل ماتصاب به امرأته من العلل كما يرى من الواجب أن تتحمل هى ماعساه كان يصاب به

وكذلك توجد حالة تسوغ للرجل أن يتزوج بثانية أما مع لمحافظة على الاولى اذا رضيت أو تسريحها ان شاءت : وهى ماذا كانت عاقراً لاتلد لان كثيراً من الرجال لايتحملون أن ينقطع النسل فى عائلتهم .

أما فى غير هذه الاحوال فلا أرى تعدد الزوجات الا حيلة شرعية لقضاء شهوة بهيمية . وهو علامة تدل على فساد الأخلاق واختلال الحواس وشره فى طلب اللذائذ .

والذى يطيل البحث فى النصوص القرآنية التى وردت فى تعدد الزوجات يجد أنها تحتوى إباحة وخطراً فى آن واحد اقال تعالى :

« فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم أن لاتعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم. ذلك أدنى أن لاتعدلوا »

« ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلاتميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة . وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفوراً رحيماً » .

ومن هذه الآيات يتضح أن الشارع علق وجوب الاكتفاء بواحدة على مجرد الخوف من عدم العدل ثم صرح بان العدل غير مستطاع . فمن ذا الذى يمكنه أن لايخاف عدم العدل مع ما تقرر من أن العدل غير مستطاع ؟ وهل لايخاف الانسان من عدم القيام بالمحل ؟ أظن أن كل بشر اذا أراد الشروع فى عمل مستطاع يخاف بل يعتقد أنه يعجز عن القيام به والوقوع فى ضده .

ولو أن ناظراً فى الآيتين أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين الزوجات لما كان حكمه هذا بعيداً عن معناهما ولولا أن السنة والعمل جاء بما يقتضى الاباحة فى الجملة .

وكأن مجموع الآيتين قدقضى بتحليل الجمع بين الزوجات ديانة وبان الله تعالى وكل الناس فى ذلك الى مايجدونه من أنفسهم . فمن بلغت ثقته من نفسه حداً لايخاف معه أن يجوز واذا أراد أن يتزوج أكثر من واحدة أبيح له ذلك بينه وبين الله . ومن لم يصل الى هذا الحد

من الاقتدار والتحفظ من الجور حرم عليه أن يتزوج اكثر من واحدة . ثم نبه مع ذلك على أن هذه الغاية من قوة النفس لا يمكن إدراكها زيادة فى التحذير

وغاية مايستفاد من آية التحليل انما هو حل تعدد الزوجات اذا أمن الجور. وهذا الحلال هو كسائر أنواع الحلال تعتريه الاحكام الشرعية الأخرى من المنع والكراهة وغيرهما بحسب مايترتب عليه من المفاسد والمصالح . فاذا غلب على الناس الجور بين الزوجات كما هو مشاهد فى أزماننا أو نشأ عن تعدد الزوجات فساد فى العائلات وتعد للحدود الشرعية الواجب التزامها وقيام العداوة بين أعضاء العائلة الواحدة وشيوع ذلك الى حد يكاد يكون عاماً جاز للحاكم . رعاية للمصلحة العامة أن يمنع تعدد الزوجات بشرط أو بغير شرط على حسب مايراه موافقاً لمصلحة الأمة

وأنه ليجمل برجال هذا العصر أن يقلعوا عن هذه العادة من أنفسهم ولا أظن أن أحداً من أهل المستقبل يأسف على تركها . فان التمتع بالنساء وان قل فى هذه الحالة من الجهة الشهوانية فانه يزيد من الناحية المعنوية التى يلزم أن تكون وجهة كل راغب فى الزواج . فان رجلا يسوقه الى الزواج سائق العقل ويوجه رغبته اليه حادى الفكر يعلم أنه إنما يتخذ لنفسه بالزواج قريناً صالحاً يمده بالمعونة فى شئونه

ويؤنسه فى وحدته ويشفعه فى عمله ويقوم معه على بنيه ومن يعول من أهله . فهو يتخير لذلك خير العقائل واكرم السلائل ويصطفيها على مايحب من العقل والأدب وطهارة الظاهر وسلامة الباطن يكون له منها منظر بهى وملمس شهى وصورة تعجب ومعنى يطرب. فهم يسبق الاشارة وذكاء يستغنى عن العبارة . لذة بلطف الشمائل ومتاع بجمال الفضائل .

كل ذلك يكون له من زوجة يختارها لتكون صاحبة له مدة الحياة تأمن شره وانقلابه ويأمن منها المكر والخلابة . تحسن القيام على أولاده بالتربية الصالحة . وتغذيهم بآدابها كما غذتهم بلبانها . فتأخذ أرواحهم من روحها ماأخذته أبدانهم من بدنها فينشأون على المحبة ويشبون على الألفة فيكون الرجل من ذلك كله مشهد ظاهره الراحة والطمأنينة وباطنه السعادة والهناء . عيش ساعة مع التمتع به خير من حياة دهر مع الحرمان من بعضه . فأين التمتع بمثل هذه اللذة من الخلود الى ماانحط من دركات الشهوة ؟

٣ - « الطلاق »

قال فولتير الكاتب الفرنساوى الشهير على طريقته من الفكاهة المعروفة فى كثير من مؤلفاته « ان الطلاق قد وجد فى العالم مع الزواج فى زمن واحد تقريباً غير أنى أظن الزواج أقدم ببضعة أسابيع بمعنى

أن الرجل ناقش زوجته بعد أسبوعين من زواجه ثم ضربها بعد ثلاثة ثم فارقها بعد سته أسابيع » . وقد أراد بذلك أن يقول أن الطلاق قديم فى العالم وأنه يكاد أن يكون من الاعراض الملازمة للزواج. وهو حق لا يرتاب فيه فقد دل تاريخ الامم على أن الطلاق كان مشروعاً عند اليهود والفرس والرومان وانه لم يمنع الا فى الديانة المسيحية بعد مضى زمن من نشأتها

ولا يزال أثر ذلك المنع باقياً الى الآن فى شرائع الأمم الغربية التى وضعت الزواج على قاعدة أنه عقد لا يحل الا بموت أحد الزوجين وهذا أفراط فى احترام هذا العقد ومغالاة فيه الى حد يصعب أن يتفق مع راحة الانسان

نعم ان من أمانى الأمم الصالحة أن تكون عقدة الزواج عندها عقدة لا تنحل الا بالموت. ولكن مما تجب مراعاته أن الصبر على عشرة من لا تمكن معاشرته فوق طاقة البشر

ولهذا فقد شعرت الأمم الغربية على ممر الأزمان بأن احكام الكنيسة تطالب الناس بالكمال المطلق بدون مراعاة حاجاتهم وضروراتهم. وكان هذا الشعور من بواعث حركة النفوس الى التخلص من ربقة تلك الاحكام فنزع الغربيون الى وضع القوانين على حسب مصالح حياتهم وما تقتضيه الحاجات ولقد اشتد هذا الشعور فى الناس

حتى اضطرت الكنيسة نفسها لان تخضع لمطالبه وموافاة رغائب الكافة وحملها الشح بمكانتها أن تسقط على تقرير أحكام فى أحوال سمتها (احوال بطلان الزواج) ورتب على ذلك البطلان أحكاماً لا تختلف فى آثارها عن أحكام الطلاق فقبلت فسخ الزواج اذا ثبت أحد الزوجين أنه لم يكن عند الزواج مطلق الاختيار أوانه أخطأ فى معرفة الآخر أواذا ادعى أحد الزوجين أن الآخر لا يستطيع القيام بحقوق الزوجية . وأخذت تتوسع فى تأويل الحالة الثانية الى درجة متناهية حتى أدخلت فيها كل شىء . وفى الحالة الأخيرة قد تكتفى بأن يتفق الزوجات على أن يدعى أحدهما أن الآخر لم يقم أولم يعد فى إمكانه أن يقوم بأول واجب يوجبه الزواج لينالا بطلانه محتجة بأن الاخلاق بهذا الحق لا تمكن معرفته الامن قبل الزوجين فقولهما هو الدليل الذى يصح التعويل عليه

الا أن هذا التساهل لم يف بحاجات الأمم فى هذا الباب فبعد أن قنعت به مدة من الزمان انبعثت مرة أخرى الى المطالبة بتقرير أحكام كافلة للراحة . خصوصاً وقد رأت أن هذه الأسباب التى قررتها الكنيسة لبطلان الزواج تغلب فيها الحيلة وقل ما تتفق فيها الحقيقة . وان قيام شريعة على قوائم من الحيل مما لا ترضاه المهذبة والأذواق السليمة

ومن أجل ذلك أضطرت الحكومات الى تقرير الطلاق والتصريح بجوازه على شروط بينتها وأوسعت له محلا من قوانينها . وهكذا انحصر سلطان الكنيسة عما كان يتناوله فى هذه المادة كما بطلت سيطرتها فى كل مالم تتفق فيه أحكامها مع صالح تلك الأمم. وهذا هو الشأن فى كل شرع أو دين لايراعى أهله فى أحكامه مقتضيات الزمان والمكان ويغفلون عن طبيعة الانسان ويقفون به فى مكان واحد عند ماقرره بعض من سبقهم بدون انعام نظره فى أسراره وطرق تنفيذه

دخل الطلاق فى جميع الشرائع الغربية تقريبا رغما عن معارضة الكنيسة واصرارها على القول بأن من طلق بحكم القانون لايجوز له أن يتزوج لعدم اعتبارها ذلك الطلاق . ولكنه لم يصل الى الدرجه التى يستحقها من القبول والاعتبار ولم يستوف أحكامه الاعند الأمة الأمريكانية التى فاقت غيرها ببذلها المجهود فى الاقدام على طلب الترقى ففتحت أبواب شريعتها للطلاق ولم تقيده باحوال مخصوصة كما قيده غيرها

وكل مطلع على أحوال الأمم الغربية يرى الميل عند جميعها الى التوسع فى الطلاق ولابد أن تنتهى يوما الى الاعتراف بان ما أباحته الى الآن من الطلاق المشروط بثبوت الزنا على أحد الزوجين

أوالحكم عليه بعقوبة فى أحوال مخصوصة غيرواف بالحاجة . وعند ذلك تقرر إباحة الطلاق متى وجدت أسبابه فى نفوس الزوجين وتتركه الى مشيئتهما

نعم أن اباحة الطلاق بدون قيد لاتخلو من ضرر . ولكنه من المضرات التى لايستغنى عنها ويكفى لتسويغه أن منافعه تزيد عن مضاره فان كل نظام لايخلو من ضرر والكمال التام فى هذه الحياة الدنيا أمر غير مستطاع

ونحن لانريد البحث فى هذا الموضوع الواسع لاننا اجتنبنا فى هذا المختصر كل بحث نظرى . وانما نقول أن من أجل النظر فى نصوص الكتاب العزيز وما اشتمل عليه من الآيات المقررة للطلاق وأحكامه يشعر بالنعم التى أفاضها الله على المسلمين ويقتنع بان كتاب الله قد أتى من الحكمه على منتهاها وأنه وفى كل شىء حقه

وأول مايجب الالتفات اليه هو أن شرعنا الشريف قد وضع أصلا عاماً يجب ان ترد اليه جميع الفروع فى أحكام الطلاق وهو أن الطلاق محظور فى نفسه مباح للضرورة والشواهد على ذلك كثيرة فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وماجاء فى كتاب الأئمة نورد منها مايأتى :

قال تعالى : (فان كرهتموهن فعسى أن تكرهو شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً)

وقال جل شأنه : وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما)

وقال تعالى : (وان امرأة خافت من بعلها نشوزاً او اعراضاً فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير . واحضرت الانفس الشح وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيراً) .

وجاء فى الحديث . (ابغض الحلال عندالله الطلاق) . وقال عليه الصلاة والسلام . (لا تطلقوا النساء الا من ريبة . ان الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات) . وقال على كرم الله وجهه (تزوجوا ولا تطلقوا فان الطلاق يهتز منه العرش) .

وجاء فى حواشى ابن عابدين . ان الاصل فى الطلاق الحظر بمعنى أنه محظور الا لعارض يبيحه وهو معنى قولهم الاصل فيه الحظر والاباحة للحاجة الي الخلاص . فاذا كان بلا سبب أصلا لم يكن فيه حاجة الى الخلاص بل يكون حمقاً وسفاهة رأى ومجرد كفران بالنعمة واخلاص الايذاء بالمرأة وبأهلها وأولادها . ولهذا قال تعالى فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ،، أى لا تطلبوا الفراق ،، انتهى (١)

---

(١) صحيفة ٥٧٢ جزء ٢

والمطلع على كتب الفقه وان كان يجد أن جميع الأئمة قد نظروا على العموم الى هذا الاصل الجليل من شأن العمل عليه تضييق دائرة الطلاق بما يصل اليه الامكان . لكنه لابد أن يلاحظ أيضا انهم لم يراعوا فى التفريع تطبيق هذا الاصل على طريقة واحدة متساوية ويرى أن الفقهاء من أتباع الأئمة قد توسعوا فى أمر الطلاق ولم تطرد طريقتهم على وتيرة واحدة فى تطبيق الاحكام على الوقائع . وهذا الاختلاف يشاهد على الخصوص فى ثلاث مسائل كلها جديرة بالالتفات

أولها ـ مسئلة وقوع الطلاق الصريح بدون اشتراط النية فقد خالف بعض الفقهاء خصوصاً من المذهب الحنفى فى هذه المسئلة الاصول العامة التى بنى عليها معظم أحكام الشريعة وفاضت بها نصوص الكتاب والسنة كالأصل المقرر لعدم تكليف المكره والغافل المخطئ وأخرج الطلاق من مشمول هذا الاصل فقضى بوقوعه على المكره والمخطىء والهازل والسكران مع تعريفهم السكران بانه هو الذى لا يميز السماء من الارض

وظاهر أن أهل هذا الرأى لم يعولوا على النية التى هى أساس الدين الاسلامى كما يستفاد من حديث « انما الاعمال بالنيات » كما انهم لم يلتفتوا الى قصد الشارع فى أن الطلاق محظور فى الاصل وأنه أبغض الحلال عند الله . وقد عللوا انفاذ الطلاق فى الاحوال التى

أشرنا اليها باسباب أذكرها للقارى واترك له مسؤلية الحكم عليها

قرأت فى كتاب الزيلعى مامعناه « ان طلاق الهازل والمخطىء يقع لان لفظ الطلاق ذكر على لسان الزوج . وان طلاق المكره يقع لانه عرف الشرين واختار أهونهما . وأما السبب فى وقوع طلاق السكران فلانه ارتكب معصية فيكون نفاذ الطلاق زجراً له »[1]

ولكنا نحمد الله على أن فى المذاهب الاسلامية الأخرى ما يخالف ذلك ويتفق مع أصول الشريعة ومصلحة العامة ويمكن لمريد الاصلاح أن يأخذ به فيقرر بعدم صحة الطلاق الذى يقع فى تلك الاحوال

ثانيها ـ ان الطلاق الذى نص عليه القرآن هو واحد رجعى دائما قال تعالى : « يا أيها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة واتقوا الله ربكم . لاتخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة . وتلك حدود الله ومن تعدى حدود الله فقد ظلم نفسه . لاتدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً . فاذا بلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم» . وقال تعالى : وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك ان أرادا اصلاحاً ولكن قسم الفقهاء الطلاق الى صريح وبالكناية وقالوا بالطلاق الصريح تقع واحدة رجعية ولو نوى أكثر من واحدة أو نوى واحدة

---

(١) صحيفه ١٩٥ جزء٢

بائنة . أما بالكناية فيكون الطلاق بائناً لا تصح بعده الرجعة ولا تحل الزوجة الا بعقد جديد الا فى بعض ألفاظ استثنوها ويقع بها الطلاق ثلاثاً إن نوى الثلاث

الا أنه يوجد فى مذهب آخر كمذهب الشافعى رضى الله عنه أن الكنايات جميعها رجعية . ووجه الحق فى هذا المذهب ظاهر فانما الطلاق طلاق على كل حال وهو فصل عصمة المرأة من الرجل . فاختلاف الالفاظ بالنسبة الى هذا المعنى إنما هو اختلاف عبارة لا يصح أن يتعلق به اختلاف حكم . ولو سلم اختلاف الاحكام باختلاف الالفاظ فى مثل هذا الباب لكان الأوجه أن يكون حكم الكناية أخف من حكم الصريح

ثالثها ـ اتفق أغلب المذاهب على أن الطلاق ثلاثاً متفرقة فى حيض واحد اوفى مرة واحدة وبلفظ واحد يقع ثلاثاً . على أن هذا النوع من الطلاق الذى اعترف الفقهاء أنفسهم بانه يدعى ـ أى مخالف للكتاب والسنة ـ لا يمكن تصوره على الكيفية التى قررها الفقهاء ونصوص القرآن كلها تأبى تأويلهم . قال تعالى : « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » . وجاء فى تفسير هذه الآية فى كتاب حسن الاسوة : « وانما قال سبحانه مرتان ولم يقل طلقتان اشارة الى أنه ينبغى أن يكون الطلاق مرة بعد أخرى لا

طلقتان دفعة واحدة . كذا قال جماعة من المفسرين » . وجاء فيه أيضاً : « قد اختلف أهل العلم فى ارسال الثلاث دفعة واحدة هل تقع ثلاثاً أو واحدة فقط . فذهب الى الاول الجمهور وذهب الى الثانى من عداهم وهو الحق . وقد قرره العلامة الشوكانى فى مؤلفاته تقريراً بالغاً وأفراده برسالة مستقلة . وكذا الحافظ بن القيم فى اغاثة اللفهان واعلام الموقعين »[1]

« جاء فى ابن عابدين : « وعن الامامية لا يقع بلفظ الثلاث ولا فى حالة الحيض لانه بدعة محرمة . وعن ابن عباس يقع به واحدة وبه قال ابن اسحاق وطاوس وعكرمة لما فى مسلم أن ابن عباس قال كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة . فقال عمر ان الناس قد استعجلوا فى أمر كان لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم فامضاه عليهم . وذهب جمهور الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين الى أنه يقع ثلاثاً . قال فى الفتح بعد سوق الاحاديث الدالة عليه : وهذا يعارض ماتقدم واما امضاء عمر الثلاث عليهم مع عدم مخالفة الصحابة له وعلمه بانها كانت واحدة فلا يمكن الا وقد أطلعوا فى الزمان المتأخر على وجود ناسخ أو لعلمهم بانتهاء الحكم لذلك لعلمهم

(١) صحيفة ١٦

باناطته بمعان علموا انتفاءها فى الزمن المتأخر وقول بعض الحنابلة توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مائة ألف عين رأته فهل صح لكم عنهم أو عن عشر عشر عشرهم القول بوقوع الثلاث باطل. أما أولا فاجمعها عم ظاهر لانه لم ينقل عن أحد منهم أنه خالف عمر حين أمضى الثلاث ولا يستلزم فى نقل الحكم الاجماعى عن مائة ألف تسمية كل فى مجلد كبير لحكم واحد على انه اجماع سكوتى »[1]

وقد روى فى هذه المسئلة من الاحاديث مالم يدع شكا فى أن الطلاق الثلاث فى مجلس واحد لا يقع الا واحد . جاء فى الزيلعى : «وقال ابن عباس أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً فقام غضبان ثم قال : « أيلاعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم » . ذكره القرطبى ورواه النسائى [2] وجاء فيه أيضاً : وذهب أهل الظاهر وجماعة منهم الشيعة الى أن الطلاق الثلاث جملة لايقع الا واحدة لما روى عن ابن عباس أنه قال : كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر رضى الله عنهم واحدة فامضاه عليهم عمر رضى الله عنه رواه مسلم والبشارى . وروى ابن اسحق عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : طلق ركانة بن عبد يزيد زوجته ثلاثاً فى مجلس واحد

---

(١) صحيفة ٥٧٦ جزء ثاني (٢) صحيفة ١٩٠ جزء ثاني

فحزن عليها حزناً شديداً فسأله عليه الصلاة والسلام : كيف طلقتها ؟ قال طلقتها ثلاثاً فى مجلس واحد . قال : انما تلك طلقة فارتجعها [1]

يرى القارىء من هذه العبارات التى بسطناها ليحصل لنفسه منها رأياً ان علماء مذهب عظيم كمذهب ابن حنبل لم يعولوا على قضاء عمر رضى الله عنه بل تمسكوا بنصوص القرآن وسنة النبي ويمكن للأمة إذا أرادت الاصلاح أن تأخذ بقولهم لان عمر رضى الله عنه قد بين لنا سبب قضائه بقوله : «ان الناس قد استعجلوا فى أمر كان لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم » فكأنه اجتهد فى جعله عقوبة لردعهم عنه . وكانا نعلم أنه لم ينشأ من اجتهاد عمر الا استهتار العامة بلفظ الطلاق الثلاث وتهافتهم عليه فى محاورانهم وايمانهم

بل لم يأخذ مريد الاصلاح بمذهب الامامية الذى نقله ابن عابدين وهو مذهب الأئمة من آل البيت فى قولهم كما مر : إن الطلاق لا يقع بالطلاق الثلاث ولا فى الحيض لانه بدعة محرمة »

وان سمح لى القارىء أن أبدى هنا كل ما أظنه صواباً أقول لايمكننى أن أفهم أن الطلاق يقع بكلمة لمجرد التلفظ بها مهما كانت صريحة . نعم ان الامثال الشرعية لاتستغنى عن الالفاظ إذ لو حللنا أى عقد لوجدناه مركباً من ظهور إرادة أومطابقة إرادتين حصل

---

(١) صحيفة ١٩١ جزء ثاني

الاستدلال عليها أو عليهما من ألفاظ صدرت شفاهياً أو بالكتابة ولذلك فليس الغرض الاستغناء عن الالفاظ . وانما مرادنا ان اللفظ لا يجب الالتفات اليه فى الاعمال الشرعية الا من جهة كونه دليلا على النية

فينتج عن ذلك أنه يجب أن يفهم ان الطلاق انما هو عمل يقصد به رفع قيد الزواج وهذا يفرض حتماً وجودنية حقيقة عند الزوج وإرادة واضحة فى أنه انما يريد الانفصال من زوجته لا أن يفهم كما فهمه الفقهاء وصرحوا به فى كتبهم أن الطلاق هو التلفظ بحروف (ط ل ا ق)

والذى يطلع على كتبهم يندهش عندمايرى اشتغالهم بتأويل الالفاظ والتفنن فى فهم معانيها فى ذاتها بقطع النظر عن الاشخاص . وعندهم متى ذكر اللفظ تم الاثر الشرعى . ولهذا قصروا أبحاثهم جميعها على الكلمات والحروف وامتلأت الكتب بالاشتغال بفهم طلقتك وأنتِ طالق وأنت مطلقة وعلى الطلاق وطلقت رجلك أو رأسك وأعرقك وما أشبه ذلك . وصارت المسئلة مسئلة بحث فى اللفظ والتركيب ربما كان مفيداً للغة والنحو ولكنه لا يفيد مطلقاً علم الفقه بشئ

على أننا نظن أن علم الشرائع يقبل أبحاثاً أخرى غير تأويل الالفاظ . والطلاق لم يخرج عن كونه عملا شرعياً يترتب عليه ضياع

حقوق وانشاء حقوق جديدة وهو فى حد ذاته لا يقل عن الزواج فى الاهمية حيث يتعلق به أعظم الحوادث المدنية كالنسب والميراث والنفقة والزواج . فالاستخفاف به الى هذا الحد أمر يدهش حقيقة كل من له المام ولو سطحى بالوظيفة السامية التى تؤديها الشرائع فى العالم

ولو ترك فقهاؤنا الاشتغال بالالفاظ وبحثوا فى مآخذ الاحكام التى يقررونها وعرفوا تاريخها وأسبابها وقارنوا المذاهب بعضها ببعض وانتقدوها وبالجملة لو اشتغلوا بعلم الفقه الحقيقى لتبين لهم أن الطلاق لا يكون طلاقاً الا اذا كان مصحوباً بنية الانفصال

ويمكن لناظر أن يجد فى كتب الشريعة الاسلامية مايفيد عدم صحة الطلاق اذا فقدت نية الانفصال فقد نقل عن شرح التلقين : «ان الرجل لو طلق زوجته بكلمة أو كلمات في حال الغضب أو النزاع لا يقع طلاقه» . ورووا فى ذلك أحاديث مثل قول على أبى طالب «من فرق بين المرء وزوجته بطلاق الغضب واللجاج فرق الله بينه وبين أحبائه يوم القيامة قال الرسول عليه السلام»

نعم أن ناقل هذا القول اجتهد فى رده وبالغ فى أبطاله ولكن مريد الاصلاح له أن يبحث فى كتب الشرع كلها ويقف على آراء الفقهاء مهما كانت خصوصاً اذا كان قصده محو فساد عظيم صار ضرورة عاماً .

نحن فى زمان ألف رجال فيه الهذر بألفاظ الطلاق فجعلوا نسائهم عصم كأنها لعب فى أيديهم يتصرفون فيها كيف يشاؤن ولا يرعون للشرع حرمة ولا للعشرة حقا . فترى الرجل منهم يناقش آخر فيقول له ان لم تفعل كذا فزوجتى طالق فيخالفه فيقال وقع الطلاق وانفصمت العصمة بين الحالف وزوجته وهى لاتعلم بشىء ماولا تبغض زوجها . لاتود فراقه بل ربما كان الفراق ضربة قاضية عليها . وكذلك الرجل ربما كان يحب زوجته ويألم لفراقها فاذا افترق منها بتلك الكلمة التى صدرت منه لا يقصد الانفصال من زوجته وإنما يقصد الزام شخص آخر بالعمل الذى كان يريده كان الطلاق على غير نية منه . رب جل يناقش زوجته فى بعض شؤون البيت فيرد على لسانه فى وقت الغضب الحلف بالطلاق من باب التخويف والتهديد وعلى غير قصد منه لهدم العصمة فيقال أيضاً وقع الطلاق ويعقبة أيضاً ماسبق ذكره من البلاء الذى ينزل على الزوجين

رب فلاح يرتكب جريمة السرقة مثلا فيسأله العمدة أو مأمور المركز عما وقع منه فينكر فيستحلفه بالطلاق فيحلف أنه ما سرق والحال أنه سرق فيقال كذلك وقع الطلاق وهو لم يقصد بيمينه الا تبرئة نفسه ولم يخطر بباله عند الحلف انه مباغض لزوجته كاره لعشرتها فلم لايجوز مع ظهور الفساد فى الاخلاق والضعف فى العقول

وعدم المبالاة بالمقاصد أن يؤخذ بقول بعض الأئمة من أن الاستشهاد شرط فى صحة الطلاق كما هو شرط صحة الزواج كما ذكره الطبرسى وكما تشير اليه الآية الواردة فى سورة الطلاق حيث جاء فى آخرها، « واستشهد ذوى عدل منكم » ؟

أليس هذا أمراً صريحاً بالاستشهاد يشمل كل ما أتى قبله من طلاق ورجعة وامساك وفراق ؟ أليس قصد الشارع أن يكون للطلاق واقعة حال مشهورة لدى العموم ليسهل اثباته ، لم لا نقرر أن وجود الشهود وقت الطلاق ركن بدونه لا يكون الطلاق صحيحاً فيقتنع بهذه الطريقة هذا النوع الكثير الوقوع من الطلاق الذى يقع الآن بكلمة خرجت على غير قصد ولا روية فى وقت غضب ؟ نظن أن فى الأخذ بهذا الحكم موافقة لآية من كتاب الله ورعاية لمصلحة الناس . وما يدرينا ان الله سبحانه وتعالى قد أطلع على ما تصل اليه الأمة فى زمان كزماننا هذا فأنزل تلك الآية الكريمة لتكون نظاماً لنا نرجع اليها عند مسيس الحاجة كما هو شأننا اليوم

بل ان أرادت الحكومة أن تفعل خيراً للأمة فعليها أن تضع نظاماً للطلاق على الوجه الآتى

المادة الأولى : كل زوج يريد أن يطلق زوجته فعليه أن يحضر أمام القاضى الشرعى أو المأذون الذى يقيم فى دائرة اختصاصه ويخبره

بالشقاق الذى بينه وبين زوجته

المادة الثانية : يجب على القاضى أو المأذون أن يرشد الزوج الى ما ورد فى الكتاب والسنة مما يدل على أن الطلاق ممقوت عند الله وينصحه ويبين له تبعة الأمر الذى سيقدم عليه ويأمره أن يتروى مدة أسبوع

المادة الثالثة : اذا أصر الزوج بعد مضى الاسبوع على نية الطلاق فعلى القاضى أو المأذون أن يبعث حكماً من أهل الزوج وحكماً من أهل الزوجة أو عدلين من الاجانب إن لم يكن لهما أقارب ليصلحا بينهما

المادة الرابعة : اذا لم ينجح الحكمان فى الاصلاح بين الزوجين فعليهما أن يقدما تقريراً للقاضى أو المأذون وعند ذلك يأذن القاضى أو المأذون للزوج فى الطلاق

المادة الخامسة : لا يصح الطلاق الا اذا وقع أمام القاضى أو المأذون وبحضور شاهدين ولا يقبل اثباته الا بوثيقة رسمية

والذى يتأمل فى الآيات التى سبق ذكرها فى الاستشهاد والتحكيم يرى أن نظاماً مثل هذا ينطبق على مقاصد الشريعة ولا يخالفها فى شىء . وليس لمعترض أن يحتج بان نظاماً مثل هذا يسلب الزوج حقه فى الطلاق لان حق الزوج فى الطلاق باق على ماهو عليه الآن . فهو الذى يملك عصمة الزواج وأسباب الفراق لاتزال

متروكة لتقديره . وغاية مافى الأمر أننا اشترطنا أن يسبق الطلاق تحكيم الحكمين ونصيحة القاضى . وليس فى هذا تعد على حق من حقوق الزوج وانما هو وسيلة للتروى والتبصر اتخذت لمصلحة المرأة وأولادها بل ولمصلحة الزوج نفسه حيث نرى كثيراً من الأزواج يأسفون على وقوع الطلاق منهم على غير روية ثم يضطرون الى استعمال الحيل الدنيئة كالمستحل مثلا لمداواة طيشهم

ألا يرى أفاضل الفقهاء أن مثل هذه الطريقة البسيطة تترتب عليها منفعة عظيمة هى تقليل عدد الطلاق فضلا عما فيها من أتباع أوامر الله وتنفيذ حكم مهم مثل حكم التحكيم المنصوص عنه فى الآية التى ذكرناها واتباع أمر شرعى بقى معطلا الى الآن حيث لم نسمع باجرائه يوماً خصوصاً فى أمة كأمتنا بلغ أمرها من فساد الأخلاق والطيش الى حد أن الرجل يحلف بالطلاق وهو يأكل ويشرب ويمشى ويضحك ويتشاجر ويسكر وامرأته جالسة فى بيتها لا تعلم شيئاً مما جرى فى الخارج بينه وبين غيره

دلت احصائية الطلاق عن مدينة القاهرة فى مدة الثمانى عشرة سنة الأخيرة على أن كل أربع زوجات يطلق منهن ثلاث وتبقى واحدة فقط . واليك بيانها بالتفصيل

سنة	زواج	طلاق	سنة	زواج	طلاق
١١٩٨	١٣٦٠٢	٦٩٠٢	١٣٠٧	٥٧٠٠	٤٧٠٠
١٢٩٩	٤٩٠٠	٤١٥٢	١٣٠٨	٦٧٥٠	٥٩٠٠
١٣٠٠	٤٣٥٠	٤٦٤٨	١٣٠٩	٦٩٠٠	٥٥٤٨
١٣٠١	٣٤٠٠	٤٠٠٠	١٣١٠	٧١٠٠	٥٨٤٧
١٣٠٢	٤٧٠٠	٥٢٥٠	١٣١١	٧٤٠٠	٥٢٨١
١٣٠٣	٤٧٤٩	٥٥٠٠	١٣١٢	٨٢٥٠	٤٦٥٠
١٣٠٤	٤٨٥٠	٤٦٩٨	١٣١٣	١٤٢٥٠	٤٦٠٠
١٣٠٥	٤٧٤٩	٥٣٥٠	١٣١٤	٨١٥٠	٤٣٠٠
١٣٠٦	٥٠٠٠	٥٨٥٠	١٣١٤	٨١٤٨	٤٠٠٠

واذكر هنا اخصائية أخرى عمومية عن عدد الطلاق والزواج الذى حصل فى عموم القطر المصرى فى سنة ١٨٩٨ :

(١)

١٨٩٨	١٢٠٠٠٠	١٢٠٠٠

ومنها يظهر أن كل أربع زوجات تطلق منهن واحدة وتبقى

---

(١) هذه الاحصائيه استخرجها من دفاتر المحاكم الشرعية حضرة عامر أفندى اسماعيل الموظف بنظارة الحقانية والمنتدب بالمحكمة الشرعية الكبري

وهذه النتيجة وان كانت أحسن من الأولى بسبب أنها تشتمل على سكان الارياف الذين لا يطلقون مثل أهل مصر الا أن كلاهما من أقوى الحجج على اضمحلال حال العائلات عندنا وسهولة تهدم بنائها

ومن الغنى عن البيان أن المرأة اذا ترقت وشعرت بجميع مالها من الحقوق فانها لا تقبل أن تعامل بطرق القسوة والاهانة التى تعامل بها وهى جاهلة . وعندذلك يحس الرجال أنفسهم بأنه ليس من اللائق بهم أن يستعملوا حق الطلاق الذى وكله الله بأمانتهم الا عند الضرورة التى شرع الطلاق لاجلها . فتربية النساء مما يساعد على اصلاح أخلاقنا وتأديب السنتنا . فان الرجل يحتقر المرأة الجاهلة ولكنه يشعر رغماً عن إرادته باحترام المرأة اذا وجد منها عقلا ومعرفة وعلواً فى الاخلاق فيعف لسانه عن ذكر مالا يليق بها ويؤدى لها حقوقها

ولكن لا يجمل بنا أن ننتظر ذلك الزمان الذى يبلغ فيه النساء بالتربية والتهذيب ما يملا قلوب الرجال من توقيرهن واحترامهن بل يجب على كل من يهتم بشأن أمته أن ينظر فى الطرق التى تخفف من مضار الطلاق الى أن يأذن الله بتلك الغاية التى هى منتهى كل غاية وقد بينا أن مجموع المذاهب الاسلامية قد حوى من الأحكام ما يساعد على وضع حدود تقف عندها العامة وتكون مراعتها من الوسائل الى تقدمنا فى طريق الصلاح . وأقل ما يكون من أثرها أن لا تجد

المفاسد سبيلا من الشرع الى ظهورها فبذلك يكمل نظام العائلة وتعيش المرأة فى طمأنينة وراحة بال ولا تكون فى كل آن مهددة بفقد مكانتها من العائلة بسبب وبلاسبب

ولكن لنا أن نلاحظ أنه مهما ضيقنا حدود الطلاق فلا يمكن أن تنال المرأة ماتستحق من الاعتبار والكرامة الا اذا منحت حق الطلاق . ومن حسن الحظ أن شريعتنا النفيسة لا تعوقنا فى شىء مما نراه لازماً لتقدم المرأة . والوصول الى منح المرأة حق الطلاق يكون باحدى طريقتين الطريقة الأولى أن يجرى العمل بمذهب غير مذهب الحنفية الذى حرم المرأة فى كل حال من حق الطلاق حيث قال الفقهاء من أهله : (ان الطلاق منع عن النساء لاختصاصهن بنقصان العقل ونقصان الدين وغلبة الهوى) مع أن هذه الأسباب باطلة لان ذلك إن كان حال المرأة فى الماضى فلا يمكن أن يكون حالها فى المستقبل ولأن كثيراً من الرجال أحط من النساء فى نقصان الدين والعقل وغلبة الهوى . واستدل على ذلك بملاحظة وردت على عند اطلاعى على احصائية الطلاق فى فرنسا فقد رأيت أنه فى سنة ١٨٩٠ حكمت المحاكم الفرنساوية بالطلاق فى ٩٧٨٠ قضية منها سبعة آلاف تقريباً حكم فيها بالحق للنساء حيث ثبت أمام المحاكم أن العيب كان من الرجال ولا يصح فى الحق أن شريعة سمحاء عادلة كشريعتنا تسلب

المرأة جميع الوسائل التى تبيح لها التخلص من زوج لا تستطيع المعيشة معه كأن كان شريراً أو من أرباب الجرائم أو فاسقاً أو غير ذلك مما لا يمكن معه لامرأة سليمة الذوق والاخلاق أن ترضى بعشرته

وقد وفى مذهب الامام مالك للمرأة بحقها فى ذلك وقرر أن لها أن ترفع أمرها الى القاضى فى كل حالة يصل لها من الرجل ضرر

جاء فى كتاب البهجة فى شرح التحفة لابى الحسن التسولى ما يأتى.

« ان الزوجة التى فى العصمة اذا أثبتت ضرر زوجها بها بشىء من المتقدمة والحال أنها لم يكن لها بالضرر شرط فى عقد النكاح من أنه ان أضر بها فأمرها بيدها فقيل لها أن تطلق نفسها بعد ثبوت الضرر عند الحاكم عن غير ان تستأذنه فى ايقاع الطلاق المذكور أى لا يتوقف تطليقها نفسها على إذنه لها فيه وان كان ثبوت الضرر لا يكون الا عنده كما أن الطلاق المشترط فى عقد النكاح أى المعلق على وجود ضرر لها أن توقعه بعد ثبوته بغير اذنه وظاهره اتفاقا . وقيل حيث لم يكن لها شرط به لها أن توقع الطلاق أيضاً لكن بعد رفعها اياه للحاكم وبعد أن يزجره القاضى بما يقتضيه اجتهاده من ضرب أو سجن أو توبيخ ونحو ذلك ولم يرجع عن اضرارها . ولا تطلق نفسها قبل الرفع والزجر ومنهم من قوله ان الطلاق بيد الحاكم فهو الذى يتولى ايقاعه ان طلبته الزوجة وامتنع منه الزوج وان شاء الحاكم أمرها ان توقعه.

فعلى هذا القول لابد أن يوقعه الحاكم أو يأمر هابه فتوقعه . واذا امرها به فهى نائبة عنه فى الحقيقة كما أنه هو نائب عن الزوج شرعاً حيث امتنع منه . وروى أبو زيد عن ابن القاسم انها توقع الطلاق دون امر الامام . قال بعض الموثقين والاول اصوب »

الطريقة الثانية ـ ان يستمر العمل على مذهب ابى حنيفة ولكن تشترط كل امرأة تتزوج أن يكون لها الحق فى ان تطلق نفسها متى شاءت او تحت شرط من الشروط : وهو شرط مقبول فى جميع المذاهب

وهذه الطريقة أفضل من الأولى من بعض الوجوه . فان من المضار الحقيقية التى تتفق كل النساء فى التحفظ منها وبذل المستطاع فى اتقائها مالا يكون سبباً يسمح للقاضى ان يحكم بالطلاق فى مذهب مالك وذلك كتزوج الرجل بامرأة أخرى وزوجته الأولى فى عصمته. فان الزوجة الأولى لو رفعت شكواها الى القاضى وطلبت منه أن يطلقها لم يجز للقاضى ان يجتب طلبها فلو اشترطت ان تطلق نفسها متى شاءت أو عند مايتزوج زوجها عليها كان الامر بيدها . ولكن العمل على الطريقة الاولى أحكم واجزم فان وضع الطلاق تحت سلطة القاضى ادعى الى تضييق دائرته وأدنى الى المحافظة على نظام الزواج

ولما كان تخويل الطلاق للنساء مما تقتضيه العدالة والانسانية لشدة الظلم الواقع عليهن من فئة غير قليلة من الرجال لم تتحمل أرواحهم

بالوجدانات الانسانية السليمة كان لى الأمل الشديد فى أن يحرك صوتى الضعيف همة كل رجل محب للحق من أبناء وطنى خصوصاً من أولياء الاموة الى إغاثة هؤلاء الضعيفات المقهورات الصابرات

تبين للقارىء مما سبق أن مانريد إدخاله من الاصلاح فى حالة النساء ينقسم الى قسمين : قسم يختص بالعادات وطرق المعاملة والتربية. والقسم الثانى يتعلق بدعوة أهل النظر فى الشريعة الاسلامية والعارفين باحكامها الى مراعاة حاجات الأمة الاسلامية وضرورتها فيما يختص بالنساء وأن لا يقفوا عند تطبيق الاحكام عند قول امام واحد انما كان اجتهاده موافقاً لمصلحة عصره . وأن يدققوا البحث فيما تغير من الأحوال والشؤون فان وجدوا فى قول امام ماتتعسر معه المحافظة على كرامة الشرع أقاموا مقامه قول امام آخر يكون فى مذهبه مايسد الحاجة بدون خروج عن أصول الشريعة العامة

والعمل على تحقيق هذين النوعين من الاصلاح هو كغيره من سائر الاعمال النافعة انما يتم بالعمل والعزيمة :

١ ـ أما العلم

فهو وسيلة الامة لمعرفة حاجاتها وبه تتنبه اذهان افرادها الى ماهم فيه وما درجوا عليه من الاخلاق والعوائد والكمالات والنقائص بحيث يكونون على شعور دائم باحوالهم وتكون تلك

الأمور دائماً موضوع بحثهم

ان من الغفلة بل من أسباب الشقاء أن تكون شؤونها فى حياتنا قائمه بعوائد لا نفهم أسبابها ولا ندرك آثارها فى أحوالنا بل انما نتمسك بها لانها جاءت الينا ممن سلفنا وورثناها عمن تقدمنا وذلك كل مافيها من الحسن عندنا ومع أن هذا وحده لايكفى لان يكون سبباً فى الاخذ بها ولا فى الثبات عليها بل يجب أن نفهم أن لنا مصالح ولمن سبقنا مصالح ولنا شؤون ولهم شؤون ولنا حاجات لم تكن لهم وكانت لهم حاجات ليست لنا اليوم وذلك من البديهى الذى لايختلف فيه اثنان

فعلينا أن نأخذ من العوائد وأن نكسب من الاخلاق مايلتئم مع مصالحنا فنكون مالكين لمصادر أعمالنا كما يطلب منا العقل والشرع لا أن نكون عبيداً لعاداتنا التى وجدنا عليها آبائنا فيكون مثلنا مثل رجل وجد لباسه ضيقاً فرأى أن يجوع ليهزل ويضعف وينحل حتى يصغر جسمه فيسعه لباسه لا أن يصلح لباسه بتوسعته حتى يتفق مع جسمه .

انا لانجد عقبة فى طريقنا الى السعادة أصعب اجتيازاً من شدة تمسكنا بعادات من سلفنا من غير أن نميز بين تلك العادات صالحها وطالحها نعم أن الماضى لايصلح أن يطرح جمله . لكن يجب أن ينظر فيه بالتبصر والروية لمعرفة ما أظهر من منافع ومضار

لاأرى أعجب من حالنا : هل نعيش للماضي أو للمستقبل ؟ هل نريد أن نتقدم أو نريد أن نتأخر ؟ نرى العالم فى تقلب مستمر وشؤونه فى تغير دائم ونحن ننظر الى مايقع فيه من تبدل الاحوال بعين شاخصة وفكرة حائرة ونفس ذاهلة لاندري ماذا نصنع ثم ننهزم الى الماضى نلتمس فيه مخلصا و نطلب منه عونا فنرتد دائما خائبين

رأينا فى هذا القرن حادثة عجيبة أظنها وحيدة فى التاريخ. رأينا أمة بتمامها خلعت عوائدها وأبطلت رسومها وتخلت عن نظامها وقوانينها وطرحتها وراء ظهرها فقطعت كل صلة بينها وبين ماضيها الاما كان متعلقاً بجامعة شعبها . ثم همت فبنت بناء جديداً مكان البناء القديم فلم يمض عليها نصف قرن الاوقد شيدت هيكلا جميلا على آخر طرز أفاده التمدن فهبت من نومها ونشطت من عقالها وشعرت بان الحياة تدب فى بدنها وتجرى فى عروقها دماً حاراً قوياً فتياً : تلك هى الامة اليابانية صارت تعد اليوم فى صف الامم المتمدنة بعد أن قهرت فى بضعة أيام دولة الصين الجسمية التى لم يقتلها الاالاعجاب بماضيها اليس فى ذلك عبرة لكل مبتصر ؟ لو كانت عوائدنا فيما يتعلق بالنساء لها أساس فى شريعتنا لكان فى ميلنا الى المحافظة عليها ما يشفع لنا أما وقد برهنا على أن كل ماعرضناه من أوجه الاصلاح يتفق تمام الاتفاق مع احكام الشريعة أو مقاصدها فلم يبق لنا عذر فى التمسك بها سوى أنها قد

تقدست بمرور الزمان الطويل وانا غفلنا عن مصالحنا وتدبير شؤوننا اذا توهم بعض القراء أن ماورد فى كتب الفقهاء من استحسان عدم كشف وجه المرأة وعدم مخالطتها بالرجال دفعاً للفتنة هو من الاحكام الدينية التى لايجوز تغييرها فنقول أن هذا الاعتراض مردود بان الاحكام الشرعية جاءت في الغالب مطلقة وجارية على ماتقتضيه العادات الحسنة ومكارم الاخلاق ووكلت فهم الجزئيات الى انظار المكلفين ووضعتها تحت تصرف اجتهادهم وعلى هذا جرى العمل بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه وأتباعه

ولما اتسعت خطة الاسلام وكثر اختلاط المسلمين بغيرهم من الامم وعرضت عليهم حاجات وضرورات اقتضت أحكاماً ومشروعات جديدة قام المجتهدون بدينهم واستنبطوا لهم من أصول الشريعة العامة ما يناسب الوقائع الخاصة ففصلوا ماأجمله القرآن والسنة من الأحكام وفرعوا منها ماينا سب الأحوال والأمصار والاعصار . فهم لم يضعوا بذلك شرعاً ولم يضيفوا على الدين شيئاً وانما كان اجتهادهم قاصراً على النظر فى الجزئيات وردها الى كلياتها المقررة فى الكتاب والسنة الاترى أن القرآن لم يبين اهم الفروض مثل احكام الصلاة ومواقيتها وركوعها وسجودها ولامقادير الزكاة وأوقاتها ولا مناسك الحج . وان السنة هى التى رسمت جميع الاحكام مجملة ثم جاء

المجتهدون ففصلوا أحكامها وقرروا فروعها ؟

فهذه القواعد الكلية التى تحد أعمالنا بحدود يجب الانتهاء اليها على حسب ماورد فى الكتاب والسنة الصحيحة هى التى لاتقبل التغيير والتبديل . أما الاحكام المبينة على مايجرى من العوائد والمعاملات فهى قابلة للتغيير على حسب الأحوال والأزمان وكل ماتطلبه الشريعة فيها هى أن لايخل هذا التغيير بأصل من أصولها العامة . فكشف الرأس مثلا قبيح فى البلاد الشرقية لانه كان معتبراً فى العادة مخلا بالمروءة ولهذا السبب اعتبر عند أهل الشرق قادحاً فى العدالة . ولكنه غير قبيح فى البلاد الغربية فلايكون عندهم قادحاً . فالحكم الشرعى يجب أن يختلف باختلاف ذلك . وجواز إثبات التصرفات الشرعية بالشهادة لم يكن الغرض منه معنى مخصوصاً فى أشخاص الشهود وانما الغرض منه إثبات هذه التصرفات بالطريقة التى وقع الاصلاح عليها ولم يكن غيرها مألوفاً . فاذا تغيرت الاحوال وتبدل الاصلاح واعتاد الناس على التعامل فيما بينهم بالكتابة تغير كذلك الحكم الشرعى وتحولت طريقة الاثبات من الشهادة الى الكتابة . واذا قيل باستحباب ستر المرأة وجهها عن الرجال لخوف الفتنة وعدم الاقتضاء لحال لكشفه فى زمان كان هناك محل لخوف الفتنة ولاتقضى ضرورات الحياة على المرأة بكشف وجهها فلامانع من أن يتغير هذا الاستحسان الى ضده

فى زمان آخر . ذلك لأن اختلاف الاحكام باختلاف العوائد والمصالح ليس فى الحقيقة اختلافاً فى الشريعة وانما هو ورد لاحكام الجزئيات الى أصولها الكلية ورجوع بها الى مقاصدها الشرعية

تبين من ذلك أن لنا فى مأكلنا وملبسنا ومشربنا وجميع شؤون حياتنا العمومية والخصوصية الحق فى أن نتخير مايليق بنا ويتفق مع مصالحنا بشرط أن لانخرج عن تلك الحدود العامة التى أشرنا اليها

أما التزامنا بما وجدنا عليه آباءنا وعدم الخروج عن الدائرة التى رسموها لانفسهم فهو القضاء على الامة الاسلامية بجمود القرائح وتقييد الأرجل وغل الأيدى عن كل عمل تحفظ به كونها وتدافع به عن وجودها وتتقدم به فى سبيل سعادتها . بل قد يكون قضاء عليها بالمحو والاضمحلال

٢ - « وأما العزيمة »

فهى حث الارادة الى كل خير أرشدنا اليه العلم والعرفان والفرار بها من كل شر دلنا عليه البحث والتنقيب . العزيمة هى أشرف قوى الانسان وأجلها وأعظمها أثراً فى أعماله . فالتعليم والتهذيب وسعة العقل والاميال الحسنة والغرائز الطيبة كل ذلك لايفيد فائدة تذكر عند شخص مجرد عن العزيمة : ولهذا كان ضعف الارادة اكبر عيب فى الانسان . نرى الكثير من أهل بلادنا يستحسنون فكرة او عملا ولكنهم لايجدون من أنفسهم همة كافية لخدمة تلك الفكرة أو ذلك

العمل ويكفى أنهم يعلمون أن بعض الناس لا يتفق معهم فى رأيهم لتلاشى إرادتهم وسقوطها. أما اذا علموا أنه ربما يمسهم ضرر ما من ناحية ذلك العمل رأيتهم يفرون منه فراراً، ان كان لنا أمل فى نجاح ما نعده صالحاً لنا فانما يكون فى الرجل الذى يجب أن يعرف ويبحث ليعرف ويعرف بالفعل ما يحتاج اليه بلاده وله عزيمة تدفعه الى العمل فى جلب ما ينفعها ودفع ما يضرها بالوسائل التى تؤدى الى المطلوب بطبيعتها طال الزمان أو قصر فعلى مثل هذا الرجل الكامل نعرض طريقة للعمل فيما نحن بصده بعد العلم بان الخطوة الأولى فى كل شىء هى من أصعب الامور لان الانتقاد جميعه ينصب على من يبتدىء فى أمر خطير. ومن النادر أى يوجد شخص يحس من نفسه قوة كافية لمقاومة تيار الانتقاد العام

فاحسن طريقة أراها لتنفيذ ما عرضناه فى هذا الكتاب هى أن تؤسس جمعية يدخل من الآباء من يريد تربية بناته على الطريقة التى شرحناها وأن يختار لتلك الجمعية رئيس من كبار المصريين (ولا أظن أن الطبقات العلياء من أهل بلادنا تخلو من واحد منهم) وان يكون عمل هذه الجمعية فى أمرين: الاول التعاون على تربية البنات على هذه القاعدة الجديدة .. والثانى السعى لدى الحكومة فى اصدار القوانين التى تضمن للمرأة حقوقها بشرط أن لا تخرج فى شىء من ذلك عن الحدود الشرعية ولكن بدون أن تتقيد بمذهب من المذاهب

بل تأخذ عن كل منها ما هو موافق لحاجاتنا الحاضرة وضرورات عصرنا كما حصل مثل هذا فى وضع المجلة العثمانية وكما حصل عندنا مرارا فى بعض المسائل المتعلقة بالمحاكم الشرعية . فاذا تشكلت هذه الجمعية يخف اللوم عن كل واحد من أعضاءها فان قوة الانتقاد تأتى متوزعة على جملة من الأفراد فيسهل احتمالها ومقاومتها فلا يكون فى شدة الانتقاد ما يبعث على فتور الهمة وضعف الارادة عن العمل . لان فى قوة الجماعة من الاقتدار على المدافعة ما ليس فى قوة الفرد الواحد : والاجتماع هو القوة الحقيقة التى بدونها لا ينجح شىء

نرى حكومتنا تهم بمسئلة صغيرة كمسئلة الشفعة فتعين لها لجنة شرعية لتبحث فى المذاهب وتجمع ما تراه مناسبا من الاحكام . ونرى كثيرا من المصريين يدخلون فى كثير من الجمعيات مثل جمعية الرفق بالحيوان ومعارض الازهار وغيرها ولا يضنون بوقتهم ولا بمالهم فى تعضيد مشروع من هذه المشروعات يعتقدون صلاحيته . ونرى الجرائد تنشر بين طبقات الأمة من المعارف ما يساعد على تربيتها وتهذيبها وقد آن الوقت الذى يجب فيه على الحكومة وعقلاء الامه وأرباب الاقلام أن يوجد التفاتهم الى حال المرأة المصرية فانى لا ارى مسألة تمس بحياة الامة أكثر منها ولا أحق منها بان تكون موضوعا لنظرهم ومجالا لآرائهم وافكارهم ﴿ تم كتاب تحرير المرأة والحمد لله أولا وآخرا ﴾

محمد يوسف

صاحب مكتبة الجامعة بشارع محمد على بمصر

المكتبة مستعدة لارسال ما يطلب منها من جميع الكتب

وترسل الكتب الموضحة أدناه لجميع الجهات لمن يرسل الثمن مقدماً

أو نصفه ويحول بالباقي

ص		ص	
١٠	انشاء المقالات لمصطفى السقا	١٥	مجموعة قوانين المحاكم الشرعية والمجالس الحسبيه
٤	ديوان ابن سهل الاندلسى	٥	مملكة الجمال والحب
٨	منشآت المنشاوي	١٥	الاصول القضائية في المرافعات الشرعية
٥	بلاغة الكتاب فى القرن العشرين	١٠	التوثيقات الشرعية «
٣	أسرار المراهقة بالفتاة	٥	شيخ الحارة رواية
٣	تحت ظلال النخيل لمحمود رمزى نظيم	٤	السندباد البحري «
٦	كيف تتعلم الفرنسية في ثلاثة شهور (أول)	٤	نماذج الانشاء والاملا والمطالعة
٥	« « « « « (ثان)	٥	أزهار الادب فى « « والانشاء
٢٥	تاريخ الحركة القومية للرافعى بك	٤	رواية أرض الجحيم
٣٠	التاريخ السري لعبد القادر بك حمزه	٤	« عصابة النجمة الحمراء
٢٠	فجر الاسلام للأستاذ احمد أمين	٤	« سيركوف
١٢	مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام	٤	« ابن سيركوف
٢	ديوان عروة بن الورد	٢	« سيدنا يوسف
١٥	قانون العدل والانصاف لقدوى باشا	٤	« ليلة انتقام
٥٠	مجموعة قوانين المحاكم المختلطه لكامل مرسى بك	٨	« اللصوص

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

THE ABU SHADI
MEMORIAL LIBRARY

PRESENTED BY

CHARLES A. DANA, JR. '37
H. H. PRINCE SADRUDDIN AGA KHAN
COUNCIL ON ISLAMIC AFFAIRS

Princeton University Library
32101 080197708